التصوف النسوي عند هيلديجارد من بينجن بين الكوزمولوجيا والإيكولوجيا

د. غــلاب علــيَّو حمـــاده عثمـــان (*)

الملخص

تعد "هيلديجارد من بينجن" واحدة من أبرز الصوفيات في فلسفة العصور الوسطى الأوربية؛ إذ طرحت تصوفًا نسويًّا يقوم على الإصلاح والتجديد اللاهوتي، وهو يقوم على استنارة تلقتها في تجربة روحية؛ إذ سعت لتقديم رؤية متحررة عن المرأة، من حيث كونها متسامية وطاهرة جسدًا وروحًا على حد سواء، ولا تقل قدراتها العقلية، والدينية، والروحية على الإطلاق عما يتمتع به الرجل، كما قدمت تصورًا سلبيًّا عن الألوهية، فالعقل قاصر عن إدراكها، ويقتصر دوره فحسب في تقديم تشبيهات واستعارات مجازية عن الألوهية؛ لتقريبها للأذهان، كما يقوم الاتحاد عندها على فكرة التواضع الروحي، كما قدمت كوزمولوجيا صوفية، وأخرى إيكولوجيا صوفية، وذلك، من أجل تحقيق هارومنيا صوفية بين كل من: الله، والإنسان، والكون، والبيئة. وجاءت الدراسة في ستة محاور، الأول، وهو: حياة "هيلديجارد من بينجن"، وملامح فكرها، وسياقات عصرها، والثاني: مفهوم التصوف النسوي عند "هيلديجارد من بينجن"، وموقفها من المرأة، والثالث: الاستنارة الروحية، والرؤى الصوفية عند "هيلدجارد من بينجن"، والرابع: الألوهية في تصوف "هيلديجارد من بينجن"، والخامس: كوزمولوجيا التصوف النسوي عند "هيلديجارد من بينجن"، والسادس: إيكولوجيا التصوف النسوي عند "هيلديجارد من بينجن".

الكلمات المفتاحية:

هيلديجارد من بينجن – التصوف النسوي –الكوزمولوجيا – الإيكولوجيا– اللاهوت.

Hildegard of Bingen's Feminine Mysticism Between Cosmology and Ecology

Hildegard of Bingen stands as a prominent mystic within medieval European philosophy, advocating for a feminine mysticism rooted in theological reform and renewal. This approach stems from spiritual enlightenment she received through profound mystical experiences. She championed a liberated vision of women, asserting their inherent transcendence and purity in both body and soul, and unequivocally affirming that their intellectual, religious, and spiritual capabilities are in no way inferior to those of men.

Hildegard also presented a nuanced perspective on the Divine, recognizing that the human intellect is inherently limited in its grasp of God.

(*) مدرس فلسفة العصور الوسطى الأوربية، قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة سوهاج، مصر.
ghallab_alabnody@art.sohag.edu.eg

The mind's role, therefore, is primarily to offer metaphorical analogies and similes to bring the Divine closer to human comprehension. Central to her concept of spiritual union is spiritual humility.

Furthermore, Hildegard developed both a mystical cosmology and a mystical ecology, striving to achieve a harmonious spiritual unity among God, humanity, the cosmos, and the environment.

This study explores her contributions across six key axes:

1. Hildegard of Bingen's Life, Intellectual Characteristics, and Historical Context.
2. The Concept of Feminine Mysticism in Hildegard and Her Stance on Women.
3. Spiritual Enlightenment and Mystical Visions in Hildegard's theology.
4. The Divine in Hildegard's Mysticism.
5. The Cosmology of Hildegard's Feminine Mysticism.
6. The Ecology of Hildegard's Feminine Mysticism.

Keys words:

Hildegard of Bingen - Feminine Mysticism – Cosmology – Ecology – Theology.

المقدمة:

يعد موضوع التصوف عامة والتصوف النسوي خاصة من الموضوعات بالغة الصعوبة في دراستها، لما تمتاز به النصوص الصوفية من غموض ورمزية في التعبير، هذا فضلًا عن ندرة الدراسات فيه في فلسفة العصور الوسطى الأوربية، وتزداد صعوبته عند معالجته معالجة تطبيقية من منظورين، أولهما، المنظور الكوزمولوجي، والثاني المنظور الإيكولوجي عند المتصوفة "هيلديجارد من بينجن" *Hildegard of Bingen* (١٠٩٨-١١٧٩م).

لقد آمنت "هيلديجارد" بقدرة النساء على التصوف والتأمل، مثلهن مثل الذكور دون أدنى تفرقة بينهما، إذ أن السايقات في عصرها كان يفرض نظرة دونية للمرأة على كافة المستويات الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وهو ما ثارت عليه "هيلديجارد"، ودعت لتأسيس الأديرة الخاصة بالنساء، وأنهن لديهن القدرة على الإستنارة الروحية والتنبؤ والتواضع، والاتحاد، ... إلخ. كما قدمت رؤى لوهوتية صوفية عن الألوهية، وعالجت مفهوم الله، وكذلك الثالوث، والتجسد وعمل الإرادة والروح، هذا فضلًا عن تسامي الجسد المادي، وعلاقة الألوهية بالإنسان والكون والبيئة.

وتعد "هيلديجارد" واحدة من أبرز الفيلسوفات التي أسهمت بقوة في التصوف النسوي؛ إذ طرحت لاهوتًا جديدًا للتصوف النسوي يقوم على فكرة التواضع، وهو طريق للاتحاد مع الله، كما عالجت قضية الألوهية في ضوء الاستنارة الروحية التي تلقتها في تجربتها الصوفية، كما طرحت بشكل جديد ولأول مرة مفهومي الكوزمولوجيا والإيكولوجيا، وربطتهما بتصوفها النسوي؛ إذ قدمت كوزمولوجيا صوفية، وأخرى إيكولوجيا صوفية، لتطرح بذلك مشروعًا فلسفيًّا صوفيًّا نسويًّا يتجسد في هارمونيا بين كل من: الله، والإنسان، والكون، والبيئة.

كما كافحت "هيلديجارد" طوال حياتها من أجل الإصلاح والتجديد اللاهوتي في عصرها الذي كثيرًا ما كانت تنتقده بسبب الفساد الذي كان منتشرًا في عصرها، كما نجحت في تأسيس عديد من الأديرة النسوية، هذا فضلًا عن قيامها بعديد من الرحلات لمختلف البلاد الأوربية، وكذلك قيامها بمراسلة الباباوات، والأباطرة، والملوك؛ لنشر فكرها التجديدي.

إشكاليات الدراسة:

تدور هذه الدراسة حول إشكالية رئيسة، ألا وهي: **ما مفهوم التصوف النسوي عند "هيلديجارد من بينجن" بين الكوزمولوجيا والإكولوجيا؟**، وتتفرع من هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية، وهي:

- كيف أثرت حياة "هيلديجارد"، وفكرها، وسياقات عصرها على تشكل تصوفها النسوي؟
- ما مفهوم التصوف النسوي عند "هيلديجارد"؟ وما موقفها من المرأة؟
- ما ملامح الاستنارة الروحية والرؤى الصوفية في ثيولوجيا "هيلديجارد"؟
- ما مفهوم الألوهية؟ وما علاقته بالتصوف النسوي عند "هيلديجارد"؟
- ما علاقة التصوف النسوي بالكوزمولوجيا عند "هيلديجارد"؟
- ما علاقة التصوف النسوي بالإيكولوجيا عند "هيلديجارد"؟

أهمية الدراسة:

- التعرف على أبرز الصوفيات النسويات في فلسفة العصور الوسطى الأوربية.
- تحديد حقيقة التصوف النسوي عند "هيلدجارد"، وموقفها من المرأة.
- معالجة ملامح الاستنارة الروحية والرؤى الصوفية التي حدثت لـ "هيلديجارد".
- إبراز موقف "هيلديجارد" من مفهوم الألوهية، وعلاقته بالتصوف النسوي.
- تحديد جدلية العلاقة بين التصوف النسوي والكوزمولوجيا عند "هيلديجارد".
- تحديد جدلية العلاقة بين التصوف النسوي والإيكولوجيا عند "هيلديجارد".

منهج الدراسة:

تعوِّل هذه الدراسة على عدة مناهج، وهي: "المنهج التحليلي"، والذي يستخدم في تحليل نصوص "هيلدجارد"، للوقوف على مضمونها ودلالاتها الفلسفية، واللاهوتية، الصوفية. وكذلك، "المنهج المقارن"، وذلك في مقارنة أفكار "هيلدجارد" مع السابقين لها، واللاحقين عليها متى اقتضى الأمر ذلك، وأيضًا "المنهج النقدي"، وذلك في تقييم أفكارها من ناحية الضعف والقوة. وكذلك "المنهج الهيرمنيوطيقي"، وذلك في القراءة الرمزية لنصوصها، لفهم معانيها والأفكار المتضمنة فيها.

الدراسات السابقة:

لا توجد دراسات سابقة – في حدود علم الباحث- كتبت باللغة العربية عن أية محاور فلسفة "هيلدجارد من بينجن"، وتعد هذه الدراسة أوَّل دراسة تكشف للعالم العربي فلسفة "هيلدجارد من بينجن" عامة، والتصوف النسوي وعلاقته بكل من: الكوزمولوجيا والإيكولوجيا خاصة.

تقسيم الدراسة:

تُقسم الدراسة إلى مقدمة تتناول الإطار المنهجي للدراسة، وستة محاور، وخاتمة تتناول النتائج، والمحاور كالتالي:

أولًا: حياة "هيلديجارد من بينجن"، وملامح فكرها، وسياقات عصرها.

ثانيًا: مفهوم التصوف النسوي عند "هيلديجارد من بينجن"، وموقفها من المرأة.

ثالثًا: الاستنارة الروحية، والرؤى الصوفية عند "هيلدجارد من بينجن".

رابعًا: الألوهية في تصوف "هيلدجارد من بينجن".

خامسًا: كوزمولوجيا التصوف النسوي عند "هيلديجارد من بينجن".

سادسًا: إيكولوجيا التصوف النسوي عند "هيلديجارد من بينجن".

أولًا: حياة "هيلديجارد من بينجن"، وملامح فكرها، وسياقات عصرها.

"هيلديجارد من بينجن" راهبة ألمانية، تم الاعتراف بها رسميًّا كقديسة للكنيسة عام (٢٠١٢م) رغم كونها تنتمي للقرن الثاني عشر، وتنتمي فكريًّا إلى معلمي الكنيسة مثل القديس "أوغسطين *Augustine* (٣٥٤-٤٣٠م) و"الإكويني"*Aquinas* (١٢٢٥-١٢٧٤م)، و"تريزا من أفيلا" *Teresa of Ávila* (١٥١٥- ١٥٨٢م)، وبعد أن تم تجاهلها لعدة قرون، أُعيدَ الاهتمام بإسهاماتها الفكرية المتنوعة في القرن الواحد والعشرين، وخاصة في التصوف المسيحي، واللاهوت النسوي، وعلم دراسة الإنسان، والأخلاقيات البيئيَّة، والطب، والموسيقى، والفنون المقدسة(١). وهي كاتبة، ومتصوفة، وصاحبة رؤى، ومُلحِنَة، وواحدة من أربع نساء حصلن على لقب "طبيبة الكنيسة"، وهو لقب تمنحه الكنيسة الكاثوليكية للأشخاص الذين أسهموا بشكل كبير في اللاهوت(٢).

واشتهرت "هيلديجارد" كمعلمة، واعظة، وناقدة اجتماعية، ومؤسسة لديرين بنديكتيين، ووصفت نفسها بأنها "أنثى صغيرة فقيرة" و"ريشة تُحلِق بفعل روح الله"، وكانت تهاجم الفساد الذي كان يسود الكنيسة والمجتمع في عصرها، وهاجمت الإمبراطور "فريدريك بارباروسا" *Frederick Barbarossa* (١١٥٢-١١٩٠م)، ووصفته بأنه يتصرف كطفل، وأسوأ من الأحمق(٣). كما أثرت على التصوف المسيحي بأفكارها وأعمالها، وتُعرف باهتماماتها العلمية وتعاليمها الصوفية، كما اهتمت بالعلاج بالأعشاب والموسيقى الدينية (٤)، وأصبحت معروفة ومؤثرة ليس في عصرها فحسب، ولكن في عصرنا الحالي أيضًا، فقد وصلت موسيقاها إلى مستوى الموسيقى الاجتماعية الهادئة في تسعينيات القرن الماضي، مما أعاد إحياء روحانيتها اليوم(٥). وتم تصويرها بأنها امرأة عصر النهضة، ونبيَّة، ومُعالجة، ومحاربة بيئية(٦).

وتُعد "هيلديجارد" حاليًا أشهر وأهم امرأة من العصور الوسطى، وهذا الاستنتاج هو نتيجة لتاريخ طويل ومتنوع من الاستقبال، والذي يشمل النشر الموجه للمخطوطات، وطباعة نصوصها، والاستشهاد المستمر بها في النصوص الفلسفية، واللاهوتية، والأدبية، والتاريخية، وكذلك التعامل معها كشخصية تهتم بالفنون البصرية، والأدب، والمسرح (٧).

---

(1) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, The Encyclopedia of Philosophy of Religion, Stewart Goetz (Editors) Charles Taliaferro, John Wiley & Sons, Inc., USA, 2021 p. 1.
(2) Katie Marquette, ***St. Hildegard of Bingen***, The Big Pond, German Listening Series, Federation of German Industries (BDI), Deutschlandjahr USA, p.p. 1, 2.
(3) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, p. 1.
(4) Halil Temiztürk, ***Hildegard of Bingen: The Perception of 'Other' from the Perspective of a Medieval Mystic,*** Journal for the study on Judaism, Christianity and the West in Turkey, Oksident 1/1 (2019), p. 23.
(5) Peter Harteloh, ***Hildegard of Bingen: Philosophical Life and Spirituality***, Religions, 15: 506, Licensee MDPI, Basel, Switzerland, 2024, p.p. 1. 2.
(6) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, The Journal of Social Encounters, Vol. 8, Iss. 2, 2024, p. 310.
(7) Michael Embach, ***Hildegard of Bingen (1098–1179): A History of Reception***, In, "A Companion to Hildegard of Bingen", Eds. Beverly Mayne Kienzle, Debra L. Stoudt, George Ferzoco, BRILL, Boston, 2014, p. 273.

ولدت "هيلديجارد" في ألمانيا في مدينة "برمرشايم" *Bermersheim* القريبة من "ألزي" *Alzey* عام (١٠٩٨م)، وهي ابنة النبيل "هيلدبيرت من برمرشايم" *Hildebert von Bermersheim*، وأمها "ميكتيلد" *Mechthild*، وكانت الطفلة العاشرة والأخيرة لهما، ووضعها والداها في أحد الأديرة، وكانت راضية عن دخولها، وتلقت التعليم في سن الثامنة على يد "جوتا من سبانهيم" *Jutta of Spanheim*، و"فولمار من ديسيبودنبيرغ" *Volmar of Disibodenberg* مع فتيات أخريات؛ لإعدادهن لحياة الرهبنة في الدير، وعاشت وفقًا لتقليد القديس "بندكت" *Benedictine* في دير نسائي يتبع دير "ديسيبودنبرغ" *Disibodenberge* البندكتي، وأمضت سنوات تعليمها هناك، وتعلمت اللغة اللاتينية حتى تمكنت من قراءة الكتاب المقدس ومؤلفات آباء الكنيسة بها، وكان يوجد في الدير البندكتي للرجال مكتبة كبيرة، وهو ما وفَّر لها ولراهبات دير النساء فرصًا للتحفيز العلمي(٨)، وبهذا، فقد أصبح الدير حاضنتها الثقافية، والفكرية، والروحية(٩).

وقد حدث تحول في حياة "هيلديجارد" عام (١١٣٦م)؛ حيث توفيت معلمتها "جوتا"، وتم اختيار "هيلديجارد" بدلًا منها كمعلمة في دير النساء، الذي ازداد حجمه في ذلك الوقت؛ لتكون مسئولة عن تعليم زميلاتها الفنون الحرة، وقراءة وتفسير الكتاب المقدس وأعمال آباء الكنيسة، هذا فضلًا عن تنظيم الغناء الليتورجي في الدير(١٠). وبعد أن حققت مكانة كبيرة، شعرت بأنه قد حان وقت إخبار أصدقائها المقربين بتجاربها الرؤيوية الصوفية، وبدأت بكتابة "رؤاها" في مؤلفها "**سكيفياس**" *Liber Scivias* عام (١١٤١م)، وانتهت من إنجازه عام (١١٤٧م)،(١١) وقام البابا "يوجين الثالث" *Eugene III* – والذي تعلَّم على يد "برنارد من كليرفو"– بفحص جزء من هذا العمل في مجمع كنسي، وشجعها على مواصلة كتابتها، وكافحت "هيلديجارد" في هذه الفترة نتيجة لانفصال ديرها عن دير الرجال البنديكتي "ديسيبودنبرغ"، وأكملت بناء ديرها في "روبرتسنبيرغ" بالقرب من "بينجن" رغم معارضة الرهبان لها، إلا أن بعض الراهبات غادرن الدير، ولم يتبق معها منهن سوى عشرين راهبة، ولم تصل إلى تسوية مرضية مع الرهبان الذين رفضوا مساعدة الراهبات، وفي ظل هذا الصراع أظهرت "هيلديجارد" وعيًا كبيرًا بالقانون الكنسي، ويمكن اعتبار قيامها باستقلال ديرها عن دير الرهبان نوعًا من الحركة التحررية(١٢). ولم يتأثر ديرها بالاضطرابات التي عانت منها "ديسيبودنبرغ" في القرن الثالث عشر، وتم تدميره عام (١٦٣٢م)،

---

(8) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, translated from the German by Katherine Best with additional translations from the Latin by Laura Dolby, In, "A History of Women Philosophers", Volume II, Edited by Mary Ellen Waithe, Kluwer Academic Publishers, London, 1989, p.p. 27, 28.

(9) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p.p. 311, 312.

(10) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p. 29.

(11) Mark Atherton, ***Introduction***, In, Hildegard of Bingen, *Selected Writings*, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London: Penguin, 2001, p. 9.

(12) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p. 29.

وأعيد بناؤه مرة أخرى في بداية القرن التاسع عشر. وأصبح في أوائل القرن العشرين يحيي روح تقاليده التي تعود إلى العصور الوسطى، ويُسهم في دراستها الفيلولوجية والتاريخية(١٣).

ويجدر بنا أن نتساءل: ما السبب الحقيقي وراء استقلال "هيلديجارد" بديرها عن دير الرهبان البندكتيين؟ في الحقيقة كان الدير في العصور الوسطى مكانًا منعزلاً للخدمة الدينية، والحفاظ على الطقوس الدينية، وكان يتم فيه التخلي عن شخصية المرء الحقيقية، واتخاذ اسم آخر تكريمًا للتقديس، ويمارس الطقوس اليومية، ولم يكن مكانًا للتميز أو تطوير الأهداف الشخصية، إلا أن الأمر أصبح مختلفًا مع "هيلديجارد"، فقد جذبت رؤاها الكثير من الناس، وجعلتها مشهورة، إلا أن الدير لم يكن مكانًا مناسبًا للأشخاص المشهورين. فعلاقتها بالله – فيما تزعم–، والتي كشفت عنها في رؤاها لم تكن تتوافق مع سياسات الدير، وهو ما جعلها تؤسس ديرًا خاصًا بها، وذلك لأنها كانت في حاجة إلى مزيد من الحرية نظرًا للقيود التي كانت موجودة في ديرها السابق. وبهذا، أصبحت قائدة لحركة روحيَّة؛ حيث يمكنها التعبير عن نفسها من خلال الكتابة أو الموسيقى، وكانت حياتها تتجه نحو الاستقلالية، وخلق عالمها الروحي الخاص بها(١٤). وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاستقلال الذي قامت به "هيلديجارد" لديرها، لهو خطوة مؤسسية من أجل تمهيد الطريق لطرح فكرها الفلسفي وصوفيتها النسوية في عصر كان يؤمن بدونية النساء.

ثم قامت "هيلديجارد" بتأليف "**كتاب فضائل الحياة**" *Liber Vitae Meritorum* بين عامي (١١٥٨– ١١٦٣م)، وكانت في هذه الفترة نشطة للغاية؛ حيث قامت برحلات إلى مختلف البلاد في الإمبراطورية الرومانية، فذهبت في أولى رحلاتها عام (١١٦٠م) إلى "ماينز" *Mainz*، و"ورتهايم" *Wertheim*، و"ورزبورغ" *Würzburg*، و"كيتزينجن" *Kitzingen*، و"إبراخ"*Ebrach*، و"بامبرغ" *Bamberg*، ثم قامت برحلاتها الثانية إلى "ترير"*Trier*، و"ميتز"*Metz*، و"لورين"*Lorraine*، ونجحت عام (١١٦٣م) في الحصول على رسالة مرور آمن لديرها في "روبرتسبيرغ" *Rupertsberg* من الإمبراطور "بارباروسا"، وبفضل هذا نجا الدير من المصير المحزن الذي لحق بالأديرة الأخرى التي دُمرت بسبب الصراعات التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ثم قامت "هيلديجارد" بعد ذلك بتأسيس ديرها الثاني في "بينجن" *Eibingen* عام (١١٦٥م)، وتزامنًا مع هذا الإنجاز قامت بتأليف كتابها الثالث "**كتاب الأعمال الإلهية**" *Liber Divinorum Operum*، والذي ألفته بين عامي (١١٦٣– ١١٧٣م)، ثم قامت برحلاتها الثالثة متجهة إلى "بوبارد"*Boppard*، و"أندرناخ"*Andernach*، و"سيغبورغ"*Siegburg*، و"كولين" *Cologne*، و"وردن" *Werden*، و"كولونيا" *Cologne* عام (١١٦٣م)، وقامت برحلاتها الرابعة إلى "مولبرون"*Maulbronn*، و"هيرسو"*Hirsau*، و"كيرشاهيم"*Kirchheim*، و"زويفالتين"*Zwiefalten*،

(13) Franz J. Felten, ***What Do We Know About the Life of Jutta and Hildegard at Disibodenberg and Rupertsberg?***, In, "A Companion to Hildegard of Bingen", Eds. Beverly Mayne Kienzle, Debra L. Stoudt, George Ferzoco, BRILL, Boston, 2014, p. 38.
(14) Peter Harteloh, ***Hildegard of Bingen: Philosophical Life and Spirituality***, p.p. 2: 4.

وبهذه الرحلات تجاوزت "هيلديجارد" دور المرأة، وخاصة دور الراهبة، وامرأة الدير، وتجاوزت أيضًا البندكتيَّة؛ حيث كان هذا ممكنًا لها فحسب؛ لأنها كانت تُعد بمثابة نبيَّة، ليس بمعنى التنبؤ بالمستقبل، بل لأنه كان يتم تصويرها كشخصية نبويَّة في عصرها(١٥).

وأصبحت "هيلديجارد" مستشارة دينية وأخلاقية وسياسية لنصف أوروبا، كما تظهر مراسلاتها العديدة لمختلف الباباوات، والأباطرة، والفلاسفة، واللاهوتيين، وقامت بما لم يكن مسبوقًا بالنسبة لامرأة، وهو قيامها بأربع رحلات في قلب الإمبراطورية الرومانية، والتبشير في الكنائس والكاتدرائيات، وزيارة الأديرة؛ حيث خطبت علنًا في "ترير" *Trier*، وشنَّت هجومًا عنيفًا على رجال الدين عام (١١٦٠م)؛ لعدم تحقيقهم لعدالة الله، ودعتهم إلى الاهتمام بواجبات الكنيسة، وخطبت إلى الكهنة موضحة أنها شخصية أنثويَّة صوفيَّة، مثلها مثل "السيدة الفلسفة" في كتاب "عزاء الفلسفة" *Consolation of Philosophy* لـ"بوئثيوس" *Boethius* (٤٨٠-٥٢٤م).(١٦)

كما أصبحت معروفة في الوقت الحاضر في مجالين: أولاً، كملحنة للأغاني والتراتيل الدينية التي كانت سائدة في القرن الثاني عشر؛ وثانيًا، كشخصية رائدة وملهمة للمدافعين عن الطب العُشبي، والعلاجات البديلة في ألمانيا، وتنتمي الآن إلى تاريخ التأليف الموسيقى، فهي شخصية شعبية، بالإضافة إلى كونها شخصية أكاديمية. كما تُعرف بسبب قصة حياتها، كامرأة تمكنت في فترة كانت تميزها كراهية النساء من تأكيد نفسها كمؤلفة مؤثرة، ولها شعبية كبيرة. وتظهر في سيرتها ورسائلها ومؤلفاتها كشخصية تكتب وتعلم وتخطب في معاصريها، وعلى الرغم من شخصيتها النبوية، إلا إنها كانت متواضعة، فكانت صوتًا قويًّا للإصلاح، وتظهر كقوة ديناميكية مع رسالتها النبوية، والتي أعجب بها معاصروها وخلفاؤها، وتكتسب مكانة مرموقة لكونها فيلسوفة دينية أرثوذكسية المُعتقد، وتقدم رؤى كوزمولوجية وإيكولوجية في لاهوتها، وتعبر عن روحانية يجدها الكثيرون جذابة في وقتنا الحاضر، كما تكمن جاذبيتها في الجانب الأنثوي المميز في تفكيرها؛ حيث تضع الرجل والمرأة على قدم المساواة، وكلاهما يعكسا صورة الله. كما ترتبط أفكارها بعلم البيئة؛ حيث ترى أن الإنسان جزءًا من الطبيعة، وهو بمثابة "كون صغير" داخل الكون الكبير، كما لها قدرة متميزة في توضيح مفاهيم الدين والعقل والمجتمع، والتي لا يزال لها تأثيرٌ على القارئ المعاصر(١٧).

وبعد أن عرضنا سيرة مختصرة عن حياة "هيلديجارد"، يجب تحديد السياقات المختلفة التي كانت سائدة في عصرها من حيث الاهتمامات الفلسفية والصوفية على حد سواء، هذا فضلًا عن أهم الشخصيات التي عاصرتها، وارتبطت معهم بصلات قوية، وتجدر الإشارة إلى أن الفترة التي عاشت فيها كانت فترة تجديد، ويشار إليها باسم "عصر النهضة في القرن الثاني عشر".

---

(15) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p.p. 30, 31.
(16) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 7.
(17) Ibid, p. 31.

فبالنسبة لعلم اللاهوت، كان هناك اتجاه جديد لإنتاج أعمال موسوعية تغطي جميع جوانب العقيدة المسيحية، وهنا تبرز شخصية "**بيتر لومبارد**" *Peter Lombard* (١٠٩٥-١١٦٠م) الذي أصبح كتابه "الأحكام" الكتاب الرئيس لعلم اللاهوت في عصره والعصور التالية، أما بالنسبة للممارسات الصوفية، فقد وجد عديد من المتصوفة في عصرها، وكان من أهمهم "هوغو فيكتور" *Hugh Victor*(١٠٩٦-١١٤١م)، فقد عمل على نطاق واسع في المدارس، كما أعطى أساسًا فلسفيًا للأفكار والممارسات الرهبانية، وأكد على قيمة القراءة والتأمل، ويتشابه كتابه "حول أسرار الإيمان المسيحي" في المحتوى مع كتاب "سكيفياس" لـ"هيلديجارد"، كما أنتج "هونوريوس من أوتون" *Honorius of Autun* (١٠٨٠-١١٤٠م) أعمالًا لاهوتية تهدف إلى تقديم المبادئ الأساسية لعلم اللاهوت؛ لِتعليم الكهنة، والتي تتشابة أيضًا مع كتاب "سكيفياس" من حيث اهتمامه بعلم اللاهوت، والأنثروبولوجيا المسيحية، والخلاص[١٨].

كان النظام الرهباني الجديد للسيسترين، – وهو فرع من رهبنة القديس بنديكت، الذي يدعو إلى العودة إلى جذور تعاليم القديس بنديكت، والمتمثلة في البساطة في العبادة، والإهتمام بالتأمل والقراءة – إحدى القوى المهيمنة في عصر "هيلديجارد"، وكان "برنارد كليرفو" (١٠٩٠- ١١٥٣م) *Bernard Clairvaux* الشخصية الأكثر أهمية في الرهبنة السيسترسيَّة، والذي قام بتعليم البابا "يوجين الثالث"، وكانت كتاباته روحانية وتأملية، ومؤثرة للغاية في تلك الفترة، وكان نفوذه السياسي كبيرًا. وبحلول القرن الثاني عشر، كانت المدارس الكاتدرائية تكتسب أهمية متزايدة خاصة في باريس، واهتمت بالفنون الحرة المستمدة من العصور الكلاسيكية الرومانية، كما بدأ التعرف إلى محاورة "تيماوس" *Timœus* لأفلاطون *Plato* (٤٢٧- ٣٤٧ ق.م)، وكتاب "الطبيعة" *physics* لأرسطو *Aristotle* (٣٨٤- ٣٢٢ ق.م)، وعلم الفلك لبطليموس *Ptolemy* (٣٦٧- ٢٨٣ق.م)، كما دخلت المعرفة الفلسفية والعلمية والطبية الجديدة من العالم العربي إلى أوروبا، كما أن الكلاسيكيين في تلك الفترة أمثال: "جون سالسبري" *John of Salisbury* (١١١٠- ١١٨٠م) الذي تعلم على أيدي "برنارد من شارتر" *Bernard of Chartres* (ت ١١٣٠م)، والمؤرخ "جيرالد ويلز" *Gerald of Wales*(١١٤٦- ١٢٢٠م)، كانا على دراية بالفنون الثلاثية الحرة، وبالشعراء الكلاسيكيين أمثال: "فيرجيل" *Virgil* (٧٠-١٩ق.م)، و"أوفيّد" *Ovid* (٤٣ق.م-١٧م)، و"هوراس" *Horace* (٦٥ - ٨ق.م)، الذين تبنوا أفكارهم واقتبسوا من أعمالهم، وكثيرًا ما كانوا يشيرون إليهم. وكان يتناقض هؤلاء الكُتَّاب مع ما طرحته "هيلديجارد"، وكان من أهم الإنسانيين في القرن الثاني عشر "بيتر أبيلارد" *Peter Abelard*(١٠٧٩- ١١٤٢م)، الذي عارضه بشدة "برنارد من كليرفو"، و"ويليام الكونوشي" *Gulielmus de Conchis* (١١٠٠- ١١٥٤م). وقد أعطى "برنارد سيلفستر" *Silvestre Bernard* (١١٠٠- ١١٦٠م)، و"آلان من ليل" *Alain de lille*(١١٢٨- ١٢٠٢م)

([18]) Mark Atherton, ***Introduction***, p.p. 14. 15.

أشكالاً جديدةً لعلم الكونيات في قصائد تتسم بالمنهج المجازي والرمزية، وقدمت طرقًا جديدةً للنظر في الطبيعة والكون، وهو ما له علاقة وثيقة بالمؤلفات "هيلديجارد" الصوفية (١٩).

وكان قد انتشر في عصر "هلديجارد" الكثير من البدع والهرطقات، وتخلى رجال الدين عن الأخلاق، ولم يراع رعاة الكنيسة الحيادية التي تفرضها قدسية مناصبهم، وعرفت الرخاوة طريقها إلى عديد من الأديرة، وأصبحت الكنيسة غير قادرة على إحداث أية إصلاحات، والتي كانت في أشد الحاجة إليها داخليًا وخارجيًا في ذلك الوقت، وهو ما ثارت عليه "هيلديجارد"(٢٠). كما هاجمت بشدة علم التنجيم، وحساب الأبراج، وقيام العرافات بالتنبؤ بالمستقبل، وهو عندها فنون سحرية (٢١).

كما عاصرت "هيلديجارد" الحروب الصليبية؛ حيث قاتل المسيحيون الجماعات التي اعتبرتها الكنيسة هرطقية، فكانت على دراية بالتطورات السياسية واللاهوتية في ذلك الوقت، وذكرت في عظاتها أنه يجب محاربة الهراطقة، كما شجعت "برنارد من كليرفو" في رسائلها له على دعم الحروب الصليبية، وهذا يشير إلى أنها تأثرت بظروف عصرها، وأثرت على المتصوفين الآخرين، وخاصة "برنارد" الذي قاد الحملة الصليبية الثانية، وهذا يعني أنها كصوفية مسيحية لم تتبع سياسة مختلفة عن سياسة الكنيسة الدينية والاجتماعية (٢٢).

كما عاصرت النزاع الذي نشب بين إمبراطور ألمانيا "هنري الرابع" *Henri IV* (١٠٥٠-١١٠٦م)، والبابا "غريغوريوس السابع" *Gregory VII* (١٠٢٠- ١٠٨٥م) حول تقليد المناصب، وكان النجاح حليف الكنيسة، وفي ظل هذه الاضطرابات السياسية والدينية، والتي تجددت على يد "فريدريك بارباروسا" لم يُستعاد النظام الكنسي بالسرعة التي تمناها "غريغوريوس السابع"، وقامت "هيلديجارد" بدور النبيَّة في هذه الفترة(٢٣). ومكنتها رحلاتها باتصال شخصي ومباشر مع العالم الخارجي، وكان من نتائجها أن حصلت على موافقة الإمبراطور عام (١١٦٣م) بحماية قواته لدير "روبرتسبيرغ" من أن يصاب بأذى. وكان أحد الإجراءات الأولى للبابا "غريغوريوس السابع"، هو مهاجمة ما عَدَّهُ انتهاكات في الكنيسة وقيودًا على سلطته البابوية، وخاصة الزواج القسيسي، وبيع وشراء الأسقفيات، والرئاسات الرهبانية، والمراتب الكنسيَّة، ورغم دعم "هيلديجارد" للبابا، إلا إنها حافظت في الوقت ذاته على علاقاتها بالإمبراطور (٢٤).

---

(19) Mark Atherton, ***Introduction***, p.p. 12, 13.

(٢٠) بي بورات: ***تاريخ الروحانية المسيحية***، الجزء الثاني، ترجمة: تكلس نسيم سلامة، مراجعة وتحرير: محمد حسن غنيم، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٥م، ص ١١.

(21) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p. 36.

(22) Halil Temiztürk, ***Hildegard of Bingen: The Perception of 'Other' from the Perspective of a Medieval Mystic,*** p.p. 24, 25.

(٢٣) بي بورات، **تاريخ الروحانية المسيحية**، ص ٩٣.

(24) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 19.

فمن خلال النظر في سيرة حياة "هيلديجارد" يتضح أنها كانت ثائرة على الأوضاع الدينية والاجتماعية والسياسية التي كانت سائده في عصرها، فقد عملت بجراءة وذكاء في علاقتها مع الباباوات والأباطرة من ناحية، واللاهوتيين والفلاسفة من ناحية أخرى، ومثلت اتجاهًا صوفيًّا نسويًّا في عصر كان يشهد صراعًا بين التيار العقلي الجدلي في مواجهة التيار اللاهوتي العقدي.

وكانت "هيلديجارد" مؤلفة استثنائية، وتدور أعمالها بشكل عام في إطار من الروحانية الرهبانية، المتأثرة بالطقوس الدينية، والترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، وكان معلمها وسكرتيرها "فولمار" مسئولًا عن التصحيحات النحوية واللغوية(٢٥)، كما تتفق أعمالها مع تقاليد العصور الوسطى من حيث التفكير العقلاني وتبرير الإيمان، ولكن تجاوزته من ناحية استعادة مكان الأنثى لاهوتيًّا(٢٦).

وتتسم مؤلفاتها بصعوبة في الفهم والتفسير، فكتبت ثلاثة كتب صوفية رؤيوية، وتتناول موضوعات حول الألوهية، والنسوية، والبيئة، والكوزمولوجيا، والطب، والطبيعة، والموسيقى، والمواعظ، والشروحات، والمراسلات. ومن أهم مؤلفاتها كتاب "**سكيفياس**" *Liber Scivias* (١١٤٢-١١٥١م)، ويحتوي على ما يقرب من ستة وعشرين مشهدًا يحكي قصة الخلق والفداء؛ حيث تُصوِّر الكون كـ"بيضة"، في إشارة إلى تشريح الولادة البشرية، وكيفية تلقي الإنسان للشرارة الإلهية، وتصور الروح في سعيها للحصول على الحكمة. أما الكتاب الثاني فهو "**كتاب مزايا الحياة**" *Liber Vitae Meritorum* (١١٥٨- ١١٦٣م)، وتكشف فيه عن أخلاقياتها الفاضلة، وذلك في شكل حوار متجسد بينها وبين خمس وثلاثين فضيلة ورذيلة، وجُسِدَّ هذا الحوار في عمل مسرحي، وكانت أول مسرحية أخلاقية دينية في عصرها(٢٧). كما يرتكز لاهوت هذا الكتاب على الصراع بين الخير والشر، وبين النور والظلام، وبين كلام الله والشيطان، وتُنظِّم جميع جوانب اللاهوت، مثل التعاليم المتعلقة بالخلق، والكريستولوجيا (علم المسيح)، والإسكاتولوجيا (علم آخر الزمان)، وغيرها (٢٨).

أما الكتاب الثالث هو "**الأعمال الإلهية**" *Liber Divinorum* (١١٦٣-١١٧٢)، وهو خلاصة كونيَّة كتبت على هيئة رسالة تركتها لراهباتها في دير "روبرتسبرج"، وفيها تُذكِّر أخواتها بأن الخليقة بأكملها قد خُلقت من أجل البشرية، على عكس الفهم الأفلاطوني، وترى أن الإنسان عمل كامل لله، وهو وحدة بين الجسد والروح. كما ناقشت في كتابيها "**السبب والعلاج**" *Cause and Curae* و"**الطبيعة**" *Physica* ممارسات الشفاء البندكتية، وطرق رعاية المرضى كما كان سائدًا في الأديرة، وكيفية تحقيق الصحة والشفاء في رؤية متناغمة بين اللاهوت والطبيعة(٢٩).

(25) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p. 34.
(26) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, p. 1.
(27) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p. 312.
(28) Susanne Ruge, ***The Theology of Repentance: Observations on the Liber vite meritorum***, In, "A Companion to Hildegard of Bingen", Eds. Beverly Mayne Kienzle, Debra L. Stoudt, George Ferzoco, BRILL, Boston, 2014, p. 226.
(29) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p. 312.

ويتناول كتاب "**الطب المركب**"، خلق الكون والجسم والصحة وعلاج الأمراض، ويُعد الفصل الافتتاحي مثيرًا للاهتمام لمناقشته بأسلوب غير رؤيوي، للمسائل التي عالجتها في كتبها الثلاثة، ورغم أنه يتفق مع لاهوت عصرها إلا إنه كان متأثرًا بشكل أكثر انفتاحًا بالأفكار الفلسفية والعلمية في القرن الثاني عشر، وأسلوبه واقعي ويتسم بالبساطة والوضوح(٣٠). ويمثل صورة واضحة لعلم الأمراض، وعلم وظائف الأعضاء، والعلاج، والصيدلة كما كانت تُمارس آنذاك في الأديرة في ألمانيا، وكان كلا الكتابين مطلوبين بشدة بين الأطباء حتى أواخر القرن الخامس عشر، وهما ذا أهمية اليوم لأنهما يحتويان على عديد من الأدوية والأعشاب التي كتبت لأول مرة بأسمائها الألمانية(٣١). وتجدر الإشارة إلى أن صناعة الأدوية والعلاج الطبي كانت من اختصاص النساء، وأن "هيلديجارد" بتدويناتها الطبية أصبحت معروفة بدرجة أكبر مقارنة بباقي النساء اللاتي نقلن معرفتهم الطبيَّة شفويًّا، وأصبحت بفضل هذه المؤلفات ذات أهمية كبيرة لتاريخ الطب الأوروبي، ولُقِّبَت بـ"أول طبيبة ألمانية"(٣٢).

أما عن "مراسلات" "هيلديجارد"، فبلغ عددها ما يقارب الثلاثمائة رسالة، ومن أهم من راسلتهم نجد أربعة باباوات، واثنين من الأباطرة، وعددًا كبيرًا من الأمراء والأميرات، والقديسين، والأساقفة، ورؤساء الأديرة، ودائمًا ما كانت تؤكد في خطاباتها على احتياجات الكنيسة والأخطاء التي وقعت فيها، وكانت تنتهج أسلوب النبيَّات، وتكتب بطريقة متحررة مثل طريقة القديس "بيرنارد"(٣٣). وعلى الرغم من أن موضوع رسائلها عادة ما يكون روحيًّا، إلا أنه تضمن مسائل سياسية تتعلق بالكنيسة والدولة؛ وتوجد إشارات في رسائلها إلى الحملة الصليبية الثانية، ومجمع "ترير"، ومجلس "ريمس"، والانشقاق بين البابا والإمبراطور، والفساد والانتهاكات التي كانت تمارس داخل الكنيسة (٣٤).

كما تركت "هيلديجارد" مجموعة من الأغاني الدينيَّة، وأطلق عليها اسم "السيمفونية" *Symphonia*، وحوالي سبعة وسبعين ترنيمة ليتورجية وأوبرا، كما ابتكرت لغة خاصة شكلت أساس عملين قصيرين، وهما: "اللغة المجهولة" *The Unknown Language* و"الأبجدية المجهولة" *The Unknown Alphabet* عام (١١٥٨) (٣٥).

(30) Hildegard of Bingen, **Causes and Cures** *I, In, "Hildegard of Bingen, Selected Writings", p. 130.*
(31) Monica H. Green, ***In Search of an «Authentic» Women's Medicine: The Strange Fates of Trota of Salerno and Hildegard of Bingen,*** DYNAMIS. Acta Hisp. Med. Sci. Hist. lllus, 19, 1999, p. 26.
(32) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p. 30.
(٣٣) بي بورات، **تاريخ الروحانية المسيحية**، ص ٩٤.
(34) Mark Atherton, **Notes**, In, "Hildegard of Bingen, Selected Writings", P. 182.
(35) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, p. 1.

ثانيًا: مفهوم التصوف النسوي عند "هيلديجارد من بينجن"، وموقفها من المرأة.

تشير كلمة "تصوف" *Mysticism* إلى الطقوس السرية التي كانت تمارس في الفترة الهلنستية، وتغيَّر معناها بعد انتشار المسيحية، ليعني المعاني الباطنية والرمزية للكتاب المقدس، فأدى هذا الفهم إلى اعتبار التصوف إشارة إلى تجربة مباشرة مع الله، والتجربة الصوفية هي تجربة دون حسية تمنح معرفة حقائق يمكن الوصول إليها عن طريق التأمل الذاتي، وتوصف التجارب الحسية الفائقة بأن المعرفة تأتي فيها من ما وراء الحواس(٣٦). فمن المعروف أن التصوف مرتبط بالرجال في العصور الوسطى الأوربية، فهناك مؤسس التصوف المسيحي في القرن الأول، وهو "ديونيسيوس الآريوباغي" *Dionysius Areopagite*، و"فرسيس الأسيزي" *Francis of Assisi* (١١٨١- ١٢٢٦م)، و"إيكهارت" *Eckhart* (١٢٦٠- ١٣٢٨م)، ... إلخ، ولكن، هل هناك تصوف نسوي؟ أو صوفيَّات نسويَّات؟ وهل لدى المرأة القدرة على ممارسة التصوف؟

كان يُنظر للنساء في الثقافة الغربية الوسيطة على أنهنَّ أدنى من الرجال، وأفضل من الحيوانات(٣٧)، ويسعى اللاهوت النسوي إلى إعادة بناء الرموز اللاهوتية؛ لتشمل الرجل والمرأة، وليس الرجل فحسب، ولتكون وسيلة مساواة بينهما وليس حجة للتفرقة. بهذه الطريقة أخذ يبحث اللاهوت النسوي في الموضوعات النسويَّة الإيجابية داخل الكنيسة. فقد جاء في "سفر التكوين"(٣٨): «فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ»، وجاء في "رسالة بولس الرسول إلى أهلا غلاطية"(٣٩): «لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ»، وبذلك، فقد تخطي المسيح التمييز بين الرجل والمرأة في فدائه للبشرية، ويرى اللاهوت النسوي أن هذه الأسفار لم تقرأ قراءة نسوية بسبب الثقافة الذكورية التي كانت مهيمنة. وبهذا فقد بُنيَت الرموز اللاهوتية بطريقة اجتماعية، وليست من خلال الوحي. فالذين في مركز السلطة بنوا رموزًا ثقافية تشرع سلطتهم، وتُخضِعُ النساء لهم، ولذلك يمكن تغييرها. فقد جاء في "أَعْمَالُ الرُّسُلِ"١٧: «يَقُولُ اللهُ: وَيَكُونُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ أَنِّي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ، فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ، وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى وَيَحْلُمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَمًا»(٤٠). وهي دعوة للرجل والمرأة إلى التنبؤ(٤١). وبالتالي، لم يفرض الوحي دُونيَّة المرأة، بل جعل المرأة مساوية للرجل، بل وجعلها قادرة على التنبؤ؛ إذ تُشارك الرجل في إمكانية التنبؤ وممارسة التصوف.

(36) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, Master of Arts, A Thesis Presented to The Faculty of the Department of History, San José State University, 2014, p. 9.

(37) Minji Lee, ***Women Overcoming the Boundaries: Hildegard of Bingen's Mystical Representation of the Porous Womb***, RICE, Feminist Forum, 2017, p.1.

(٣٨) ***سفر التكوين***، الأصحَاحُ الأَوَّلُ، (٢٧).

(٣٩) ***رسالة بولس الرسول إلى أهلا غلاطية***، الأصحَاحُ الثَّالِثُ، (٢٨).

(٤٠) ***أَعْمَالُ الرُّسُلِ***، الأصحَاحُ الثَّانِي، (١٧).

(٤١) سامي حلاق اليسوعي، ***لاهوت النساء***، دراسات لاهوتية، دار المشرق، بيروت، ٢٠١٦م، ص ص ٨، ٩.

وتعد "هيلديجارد" مؤسسة التصوف النسوي في العصور الوسطى الأوربية، فقد مثَّلت النساء وهنَّ يتجاوزن حدود ثقافة عصرها ذات النظرة الدونيَّة للمرأة، وقدمت تمثيلاً أنثويًّا للكنيسة، وتطهيرًا للأرواح من خلال الولادة الصوفية في ثلاثية أعمالها الرؤيوية، وخاصة في كتابها "سكيفياس"، فقد صوَّرت أجساد النساء على أنها أجساد متسامية، وكانت واحدة من عدد قليل من النساء اللاتي كنَّ متعلمات، وكانت تقوم بالتدريس والكتابة، متغلبةً على القيود المفروضة على النساء في عصرها، وكان لها لاهوتًا ذا رمزية نسوية متميزة[٤٢]. وأصبحت واحدة من أكثر الأصوات تأثيرًا في وقت كانت فيه النساء مضطهدات، وخاصة في مجال الدين. فقد تغلبت على ذلك الاضطهاد من خلال كتاباتها ورحلاتها، مما أضفى شرعية على مكانتها اليوم كقديسة وطبيبة للكنيسة. وتحمل كتاباتها أهمية كبيرة في الدوائر النسوية من ناحية، وفي الكنيسة الكاثوليكية من ناحية أخرى، ويتشكل أثرها في استخدامها لاستعارة "الزواج بالله"، لأن رؤيتها النبوية تؤكد على الاتحاد مع الله، بدلاً من كونها حرمانًا منه[٤٣].

كما أصبحت "هيلديجارد" واحدة من أقوى الشخصيات وأكثرها نفوذًا في القرن الثاني عشر؛ حيث تراسلت مع الزعماء الدينيين والنبلاء، وكان الآلاف يتجمعون للاستماع إليها، وهي تعظ في وقت لم يكن فيه للمرأة صوت يُذكر، وكان الكهنة والرهبان يستشيرونها للحصول على توضيحات حول المسائل الليتورجية، ولجأ إليها الملوك والأباطرة للحصول على التوجيه والإرشاد. ولا تزال السيمفونيات في العالم تعزف الموسيقى التي ألفتها، كما يدرس أعمالها المهتمون بالطب البديل، وتم تبجيلها كقديسة مجازيًّا منذ وفاتها، ورغم ذلك، لم تُوسمَّ رسميًّا كـ"قديسة" إلا عام (٢٠١٢م) [٤٤].

وكتبت "هيلديجارد" إلى رئيس أساقفة "تريير" عام (١١٥٢م) قائلة: "**الزمن الحالي هو زمن بائس نسويًّا**"، مما يشير إلى أن المجتمع المسيحي قد ضعف[٤٥]. وكانت قد أصبحت حركة "الكثار" *Cathars*- والتي نشأت في فرنسا، وانتشرت في ألمانيا، وخاصة في منطقة كولونيا في أربعينيات القرن الثاني عشر- تمثل تهديدًا لاستقرار الكنيسة، فقام "إكبرت من شوناو" بكتابة مقالات ضد معتقداتها، وقد اعتقد الكثاريون أن كل ما له علاقة بالجسد والعالم المادي شرير بذاته، أما الروح فحسب فهي الخيرة، وكانت لهذه الحركة عواقب خطيرة، فتخلى رجال الدين الكثاريون عن العالم المادي، ودعوا إلى التقشف، أما المدنيون منهم فقد عاشوا حالة من اللامبالاة، وكانت وجهة نظر "هيلديجارد" الإيجابية لخلق المادة

---

[42] Minji Lee, ***Women Overcoming the Boundaries: Hildegard of Bingen's Mystical Representation of the Porous Womb***, p.1.
[43] Heidi Jo Mayer Kruse, ***Gender, Faith, and Holistism as Prophetic Vision: the Legacy of Hildegard Von Bingen's Rhetoric of 'Marriage to God'***, A Thesis of Master of Arts, the Graduate Faculty of the North Dakota State University of Agriculture and Applied Science, Fargo, North Dakota, 2013, p. iii.
[44] Ibid, p. 2.
[45] Allison Jaines Elledge, ***Spiritual Warfare in a Womanish Age: Hildegard of Bingen's Salvation History***, conference paper delivered at SEMA, Southeastern Medieval Association, November, 2010, p. 1.

متعارضة مع هذه المعتقدات، وقد خطبت خطبة حماسية ضد هذه المعتقدات في جولتها التبشيرية الثالثة بين عامي (١١٦١- ١١٦٣م) (٤٦).

وبالتعارض مع الازدراء الكثاري للجسد، تفهم "هيلديجارد" الجسد والروح كوحدة واحدة، فهي لا تعُد الروح مسجونة في الجسد، بل تمجد الجسد، وتُعده أمرًا مشرقًا؛ لأنه من خلق الله(٤٧). وذلك على خلاف وجهات النظر اللاهوتية للكنسية التي عرَّفت أجساد النساء على أنها فاسدة، وأظهر فهمها لأجساد النساء تقديرًا لتساميها، وتطهرًا لأجسادهنَّ، تمامًا كما يتم تطهير الأرواح، فكان للجسد الأنثوي قوة كبيرة لأنه مكَّن الانتقال من الأرض إلى السماء، وبهذا، حولت "هيلديجارد" ضعف المرأة الجسدي إلى قوة روحية، كما حوَّلت الصورة التقليدية للمرأة، والتي كان يُشار إليها بأنها "أوعية هشة" بسبب ضعفهنَّ الجسدي والروحي، فمن الناحية الفسيولوجية، كان يعتقد أن عملية الولادة من بدايتها حتى نهايتها كانت تُعد فاسدة بشكل طبيعي. ونظرت "هيلدجارد" إلى الجانب الآخر، فقد مكنت تسامي أجساد النساء من التطهير، فما دخل إلى جسد المرأة يمكن أن يخرج بسهولة. وأخذت رؤيتها الصوفية كدليل على طهارة النساء الجسدية والروحية، وأجساد النساء المتسامية هي المساحة التي تربط بين الله والإنسان، وهي خطوة تجعل الأنوثة نفسها ذات سلطة أكبر، ويمكن القول إن استخدام "هيلديجارد" للجسد الأنثوي في لاهوتها أسهم في تمكنها من الظهور كنبيَّة. وبذلك، تجاوزت الحدود الاجتماعية والعقائدية المفروضة على النساء التي منعتهنَّ من التدريس والوعظ(٤٨).

كما ذهبت "هيلديجارد" حول تكشف الروح عن قدراتها، وفقًا لقدرات الجسد قائلة: "**تكشف الروح عن قدراتها وفقًا لقدرات الجسد، بحيث تظهر في الطفولة البساطة، وفي الشباب القوة، وفي اكتمال العمر ... تظهر أعظم قوتها في الحكمة. بنفس الطريقة، تنتج الشجرة في نموها الأول براعم رقيقة، ثم تنتقل إلى حمل الثمار، وأخيرًا الثمار مكتملة النضج. وفي الشيخوخة، عندما تضعف عظام الإنسان وأوردته، تكشف الروح عن قوى أكثر لطفًا، كما لو كانت متعبة من المعرفة البشرية**"(٤٩).

وتربط "هيلديجارد" بين تطور الروح البشرية وتغيرات الجسد من جهة، ودورة حياة النباتات من جهة أخرى، لتقدم فكرة أن كل مرحلة عمرية تحمل معها قدرات وخصائص مميزة للروح. إذ إن هناك ارتباطًا وثيقًا بين قدرات الروح والحالة الفيزيائية للجسد، فالروح ليست كيانًا منفصلًا، بل تتأثر بالوعاء الذي تسكنه، بحيث تظهر في الطفولة البساطة، وفي الشباب القوة، وفي اكتمال العمر تظهر الحكمة، وبالتالي، هناك علاقة طردية بين التحول النوعي لقدرات الروح مع التقدم في العمر، ففي مرحلة الطفولة يُوجد الصفاء والنقاء والبساطة في فهم العالم والاستجابة له، وفي مرحلة الشباب والقوة ترتبط بالطاقة

---

(46) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 18.
(47) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, p. 3.
(48) Minji Lee, ***Women Overcoming the Boundaries: Hildegard of Bingen's Mystical Representation of the Porous Womb***, p. p. 2, 3.
(49) Hildegard of Bingen, ***Scivias* I,** 4, the Action of the Will, In, "Selected Writings", p. 52.

الجسدية والعقلية، والقدرة على الفعل والإنجاز، وفي اكتمال العمر يبلغ التطور الروحي ذروته، والمتمثلة في الحكمة، وهي أعلى أشكال القوة الروحية، وبالطريقة ذاتها، تنتج الشجرة في نموها الأول البراعم، ثم تنتقل إلى حمل الثمار، وأخيرًا الثمار مكتملة النضج، هذا التشبيه يعزز الفكرة الرئيسة عن التطور التدريجي، وهي دعوة منها للتأمل في قيمة كل مرحلة من مراحل الحياة.

كما ناقشت "هيلديجارد" أثناء شرح رؤيتها الثانية عديدًا من جوانب الزواج، بدءًا من العمر المناسب إلى أسباب تعدد الزوجات، والحظر النهائي له، أما الجانب الأكثر أهمية، من الناحية الصوفية الذي ناقشته فهو الطلاق؛ حيث أعلنت أنه يجب أن يكون هناك حب كامل بين الرجل والمرأة، كما كان في هذين الاثنين الأولين"، وتقصد بهما "آدم" و"حواء" (عليهما السلام)، وتشيد "هيلديجارد" بـ"آدم"، لأنه لم يَلُمْ "حواء" على سقوطه، وأنه بقي بجانبها بعد السقوط، كما ناشدت الأزواج بعدم الطلاق قائلة: "**لا ينبغي أن تنفصلا عن بعضهما البعض، تمامًا كما لا يمكن فصل الدم عن اللحم**"، وأن الاتحاد بين الرجل والمرأة هو هبة إلهية لا يمكن تدميرها، ويجب أن يُنظر له على أنه مشابه للزواج بين المسيح والكنيسة، وهو اتحاد مقدس. كما تؤكد هذا الارتباط بشرحها لدعم "آدم" (عليه السلام) المستمر لحواء بعد السقوط، وإنه بقيَّ يُدعمها لأنه كان يعلم أنها قد أعطيت له كمنحة إلهية(٥٠).

وبذلك، تُثني "هيلديجارد" على "آدم" (عليه السلام) لأنه لم يَلُمْ "حواء" (عليها السلام) على السقوط، وظل بجانبها. وتُناشد الأزواج عدم الطلاق، مشبهةً العلاقة بين الرجل والمرأة بالدم واللحم لا يمكن فصلهما، وتصفها بأنها هبة إلهية مقدسة لا تُدمَّر، تمامًا كالزواج بين المسيح والكنيسة، وهذا الدعم المستمر من "آدم" لـ"حواء"، لأنها أُعطيت له كمنحة إلهية، وهذا يؤكد على قدسية الترابط بينهما.

أما **الرؤية الثانية** في "سكيفياس" فهي ذات أهمية أنثروبولوجية، وهي توضح تميز الآباء الأوائل للجنس البشري، فيتحدث اللاهوتيين في معالجاتهم للزواج عن الشهوة، ولكن نادرًا ما يتحدثون عن الحب، زتدعوا للحب الكامل كأساس للاتحاد الزوجي، وترى أن الحب هو الذي يرسخ العلاقات الشخصية، ولا تقول إن المرأة ليست تحت سلطة الرجل، ولكن الطريقة التي تسمح بها للمرأة بأن تكون مختلفة فيما يتعلق بما كان معتادًا آنذاك. وتؤكد على المساواة بين الجنسين قانونيًّا، كما شجعت النساء المتزوجات على تقديم الشكاوى إلى الكنسية في حالة ارتكاب الزوج جرائم ضدها، فهي تدافع عن أخواتها المتزوجات برؤية جريئة؛ لتكمل ما قاله الرسول "بولس"(٥١).

وتجدر الإشارة إلى أن "هيلديجارد" تجعل الحب أساسًا للزواج والمساواة بين الجنسين، وبينما يركز اللاهوتيين على الشهوة عند الحديث عن الزواج، وتُطالب بالحب الكامل كأساس للاتحاد الزوجي، مُعتبرةً إياه جوهر العلاقات الشخصية. ورغم أنها لا تُنكر سلطة الرجل، فإنها تُقدم منظورًا مختلفًا وغير مألوف

(50) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p. 47.
(51) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p.p. 55, 56.

للمرأة في عصرها، وتُشدد على المساواة الدينية بين الجنسين. وتذهب أبعد من ذلك بتشجيع النساء المتزوجات على تقديم الشكاوى للكنيسة إذا ارتكب الزوج أي جرائم في حقها.

وجاء في "**رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثة**"(٥٢): «٨لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. ٩وَلأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ. ١٠لِهذَا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ يَكُونَ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى رَأْسِهَا، مِنْ أَجْلِ الْمَلاَئِكَةِ١١. غَيْرَ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنْ دُونِ الْمَرْأَةِ، وَلاَ الْمَرْأَةُ مِنْ دُونِ الرَّجُلِ فِي الرَّبِّ١٢. لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ مِنَ الرَّجُلِ، هكَذَا الرَّجُلُ أَيْضًا هُوَ بِالْمَرْأَةِ. وَلكِنَّ جَمِيعَ الأَشْيَاءِ هِيَ مِنَ اللهِ».

وتفسر "هيلديجارد" ذلك، بقولها: "**إن المرأة لم تُخلق من أجل الرجل، ولكن هو أيضًا خُلق من أجلها**"، منكرةً أن غرض المرأة من الوجود يرتبط حصريًّا بالرجل، وتصف علاقة الجنسين على أنهما متساويان في القوة، وبالتالي، فهي تخفف من هيمنة الرجل على المرأة كما جاء في التراث اللاهوتي، ولا تستبعد النساء المتزوجات من تميز حواء كأفضل خلق الله. ووفقًا للمعنى الحرفي والتاريخي للكتاب المقدس، تفسر "هيلديجارد" أن الرجل خلق من التراب، ولكن المرأة خلقت من جسد الرجل، وكون "حواء" مخلوقة من جسد "آدم"، وليس من التراب، فتستنتج أن المرأة لا تتغير؛ لأنها مخلوقة من اللحم، وتظل لحمًا، ومرجع يعود إلى محاولة ترسيخ مفهوم "**قوة الضعف الأنثوي**"، فالضعف الأنثوي ليس سوى قوة أكثر رقة، فهي بعيدة عن السلبية البحتة وفقًا للمعنى الحرفي للكتاب المقدس، لقد خلق الله الرجل شجاعًا والمرأة ضعيفة، وهذا يعني أن الخلاص للطبيعة البشرية الضعيفة، والتي خلقت من ضعف المرأة(٥٣).

وتقارن "هيلديجارد" قوة الرجل بالصلابة، وضعف المرأة بالليونة، وتقارب بين "قسوة العهد القديم" مع قسوة قلوب الرجال، وليونة "العهد الجديد" مع لطف قلوب النساء، وهذا يشير إلى أنها تربط الليونة كجانب إيجابي مع ضعف المرأة بالعهد الجديد. ويمكن العثور على سمة مهمة عند "هيلديجارد" في نظرية الإنسان كصورة الله، وهي النظرية "الأنثرو– ثيولوجية"، فبينما يقوم علماء اللاهوت في العصور المبكرة بترسيخ دونيَّة المرأة على أنها خلقت على صورة الله، ونسبوا للرجل فحسب خصائص التشابه مع الله؛ لتحقيق سلطة الرجل في الحياة الاجتماعية والسياسية، ولا تميز "هيلديجارد" بين الجنسين في الخلق على صورة الله. وتستشهد بما جاء في الكتاب المقدس: "**وخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهما**"، وبالتالي، فإن الله يغرس صفاته الخاصة في الإنسان كذكر وأنثى(٥٤) دون أدنى تفرقة بينهما. ويمكن أن نستنتج من ذلك، أن "هيلديجارد" ترى أن العهد الجديد واليهود يتسمون بالقسوة في أعمالهم وأفكارهم، على عكس من العهد الجديد والمسيحيين الذين يتسمون بالتسامح.

(٥٢) *رسالةُ بولُسَ الرَّسولِ الأولَى إلى أهلِ كورِنثوسَ*، الأصحَاحُ الْحَادِي عَشَرَ، (٨ – ١٢).
(53) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p.p. 55: 57.
(54) Ibid, p.p. 53, 59.

كما تصف "هيلديجارد" ماهية الإنسان بقولها: "**يحتوي الإنسان على ثلاثة مسارات، وهي: الروح، والجسد، والحواس، وتسير الحياة البشرية في ضوء هذه المسارات. فالروح تملأ الجسد بالحياة، وتولد الحواس، ويجذب الجسد الروح إليه، وتلمس الحواس الجسد وتجذب الروح إليها. وتهيئ الروح الحياة للجسد مثل النار التي تغمر الظلام بالضوء؛ لديها قوتان رئيستان مثل الذراعين، وهما: الفهم والإرادة. ليس لأن الروح لديها هذه الأطراف لتحريك نفسها؛ بل لتكشف عن نفسها في هاتين القوتين**"(٥٥).

وتقدم "هيلديجارد" نموذجًا ثلاثيًا للإنسان: الروح، والجسد، والحواس، ورغم بساطته ووضوحه، إلا أن العلاقة بين هذه المكونات معقدة ومتشابكة بشكل أكبر مما يوحيه الوصف الذي قدمته، وهذا يقلل من عمق التفاعل والتأثير المتبادل بينهم، وكأنها قوى ميكانيكية بسيطة وليست تفاعلات وجودية عميقة.

كما ترى "هيلديجارد" أن الفهم مرتبط بالروح؛ حيث قالت: "**يرتبط الفهم البشري بالروح مثل الذراعين بالجسد، فكما يرتبط الذراع باليد، واليد بالأصابع، فلا شك أن الفهم ينبع من الروح، وينشط القوى الأخرى للروح، والتي من خلالها يعرف ويعترف بالأفعال البشرية، ....، فإن الفهم هو الذي يميز بين الخير والشر في الأعمال البشرية، لذلك، تُعرف جميع الأشياء بفعل الفهم، ....، فهو يفحص الأشياء المفيدة والأشياء عديمة الفائدة، والأشياء المحبوبة والأشياء المكروهة، والأشياء الحية والأشياء الميتة، ....، والفهم موجود في الروح مثل الكتفين في الجسد، يعمل كقوة دافعة وراء القوى الأخرى للروح، مما يمنحها القوة مثلما يمنح الكتفان القوة للجسد. إنه مرن، مثل ثني الذراع، يميز بين الإلهي والإنساني، لأنه يعمل بإيمان حقيقي**". كما ذهبت إلى أن الإرادة تتجسد في علة الفعل متى قبله العقل وجسَّدهُ التفكير؛ حيث قالت: "**إن الفهم يميز الفعل من خلال عملية معرفة الخير والشر تمامًا، كما أن الملائكة لديهم فهم في حب الخير وكره الشر. وكما أن للجسد قلبًا، كذلك للروح فهم، ....، حتى يوجه الإرادة لكل فعل، سواء كان خيرًا أم شريرًا**"(٥٦).

وبالتالي، فإن الفهم عند "هيلديجارد" هو القدرة الأساسية للروح التي تُمكِّنها من التمييز، والمعرفة، وتوجيه الأفعال، وهو ضروري لفهم الواقع والارتباط بكل ما هو إلهي. فالفهم هو الأداة التي تُمكِّن الإنسان من تمييز الأفعال من خلال معرفة الخير والشر، وتقارن هذا الدور الجوهري للفهم بفهم الملائكة، الذين يُفترض أن لديهم قدرة فطرية على حب الخير وكره الشر. ويرفع هذا التشبيه من شأن الفهم البشري، ويُضفي عليه بعدًا روحانيًا، مما يعني أن قدرة الإنسان على التمييز بين الصواب والخطأ هي جزء أساسي من طبيعته الروحية.

(55) Hildegard of Bingen, ***Scivias* I**, 4, the Action of the Will, p. 53.
(56) Ibid, p. p. 54, 55.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك اتجاهين رئيسين من الحجج يدعمان الفكرة القائلة بأن ميتافيزيقا "هيلديجارد" تتميز بمركزية أنثوية؛ حيث يُقدِّم الاتجاة الأول تحديدًا لأُونْطولُوجيتها، موضحًا أنها تمثل تسلسلاً هرميًّا للكائنات، وتقدم جوانب أنثوية للألوهية. ويُقارن الاتجاة الثاني بفكر "الإكويني" و"إيكهارت" مُشيرًا إلى أوجة التشابه والاختلاف. وأن عملها يستحق الدراسة ليس فحسب من وجهة نظر فلسفية ولاهوتية، ولكن من وجهة نظر تهتم بالنسويَّة، فقد طورت فلسفة تتمحور حول الأنثى مبنية على إبستمولوجيا ميتافيزيقيَّة ترفض الطلاق والانفصال، كما أن بناءها الأُونْطولُوجي بيَّن مستويات الوجود والتدخل الإلهي للشخصيات النسوية، فهي تُقدِّم لنا نظرة عالمية قد تكون بمثابة ترياق لأمراضنا المعاصرة. وبهذا، يُنظر لها على أنها تقف في التقاليد الصوفية نفسها مثل "إيكهارت، لكن تُضفي رؤاها بُعدًا نسويًّا خاصًا على تفكيرها(٥٧).

وبذلك تُعد "هيلديجارد" من أوائل الصوفيات اللاهوتيات اللاتي استعدن بجدية وإيجابية مكانة الأنثى في النظام اللاهوتي؛ حيث توازن بين صورة الخالق الذكورية التقليدية، والأنثى الإلهية أم جميع الأحياء التي تغمر الكون بالحكمة المانحة للحياة(٥٨). وقد أثرت "هيلديجارد" على تطور التصوف النسوي في القرون التالية، وكان من أبرز الصوفيات النسويات كل من: "جيرترود من هلفتا" *Gertrude of Helfta*(١٢٥٦-١٣٠٢م)، و"جوليانا النرويجية" *Julian of Norwich*(١٣٤٣- ١٤١٦م)، و"كاترينا من سيينا"*Catherine of Siena* (١٣٤٧- ١٣٨٠م)، "**كريستين من بيزان**" *Christine de Pizan* (١٣٦٤- ١٤٣٠م)، و"كاترين من جنوة"*Catherine of Genoa* (١٤٤٧-١٥١٠م)، و"تيريزيا الأفيليَّة" (١٥١٥-١٥٨٢م)، ...إلخ.

إن قليل من النساء في العصور الوسطى قبل القرن الثالث عشر تحدثن مباشرة عن تجاربهن الدينية، وتفسر هذه الحقيقة سبب كون تحديد الأنماط في تصوف النساء قبل هذه الفترة غير عملي، وأن تعريف التصوف النسوي على أنه "مرادف لـ "تصوف الزواج"، يتميز باستخدام صور العروس، فقد سعت الصوفيات إلى الهدف نفسه الذي سعى إليه الصوفيون، وهو الاتحاد مع الإلهي، ولكن تميل تجاربهن إلى أن تكون لها طبيعة أكثر حميمية، مثل الصور الجسدية، والصور العروسية، وكانت "جيرترود من هلفتا" أول من أظهرت هذه الجوانب في التصوف النسوي(٥٩). ويظهر الدور الذي أدته "**جيرترود من هلفتا**" في تطوير "التصوف النسوي" وفقًا لما جاء في نص لها بعنوان "**نبأ الحب الإلهي**"، قائلة: "**سمعت أثناء الصلاة هذه الكلمات: «سأخلصك ... سأحررك ... لا تخافي». ومع هذا، رأيت يده، رقيقة وناعمة، تمسك بيدي، كما لو كانت لتؤدي عهدًا، وأضاف: «٩... وَأَعْدَاؤُهُ يَلْحَسُونَ التُّرَابَ.»**"(٦٠)؛ حيث تفرق

(57) Jane Duran, ***Hildegard of Bingen: A Feminist Ontology***, European Journal for Philosophy of Religion, 6/2 (Summer 2014), p.p. 155, 156.
(58) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, p. 2.
(59) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p. 26.
(٦٠) اَلْمَزَامِير، اَلْمَزْمُورُ الثَّانِي وَالسَّبْعُونَ لِسُلَيْمَانَ، (٩).

بين حالتين، الأولى، "حالة العالم الظاهري" حيث كانت لا تزال في وسط المذبح، والثانية، "حالة الرؤية" التي سمعت فيها كلمات الله. كما تستحضر مزيدًا من الصور الجسدية داخل الرؤية نفسها، قائلة: "**إن اليد منحتني وعده، وعرفتني على تلك الجواهر الساطعة (جروحه) التي ألغت جميع خطايانا**"، وهنا تركز على المشاركة بينها وبين المسيح من خلال مسك اليد، كما عاشت عديدًا من جوانب التصوف التي تم وصفها بأنها "أنثوية".(٦١)

كما اعترفت الكنيسة بالكتابات اللاهوتية النسوية لكل من: "جوليانا النرويجية"، و"تيريزيا الأفيليّة"، وهذا دليل على قدرة النساء على دراسة اللاهوت، والكتابة فيه، وتعليمه، ووعظه. ووجد في كتاباتهن تأكيدات على الرموز النسوية، خاصة صورة حكمة الله، وتساوي المرأة والرجل روحيًّا في مسألة الخلاص. كما أسهمت "**كريستين من بيزان**" في الجدال حول طبيعة المرأة، هل هي خيرة أم شريرة؟ فدافعت في مؤلفها "**مدينة السيدات**" عن قدرة النساء على الفضيلة، وذلك ردًّا على مجادلات رجال الكنيسة والشعراء الذين عدُّوا المرأة شريرة، وسببًا للخطيئة (٦٢).

وكان لـ" كاترينا من سيينا" عديد من المؤلفات، ومن أهمها: حوار الرعاية الإلهية، ومجموعة من الرسائل التي وجهتها إلى البابا "غريغوريوس الحادي عشر" (١٣٢٩- ١٣٧٨م)*Gregorius XI*، و"شارل الخامس" ملك فرنسا، وإلى الكرادلة، والأساقفة، والدوقات، ... إلخ؛ حيث شرحت رؤاها، وكيف أثرت على حياتها، وجاءت إحدى هذه الرسائل في وقت مضطرب للغاية للكنيسة الكاثوليكية عام (١٣٧٦م)؛ حيث كانت البابوية مقيمة في مدينة أفينيون، وبعيدة عن روما لأكثر من خمسين عامًا، وسعت لإعادة الكنيسة إلى موطنها الروحي، لمساعدتها على الإصلاح، ومرت بتجربة صوفية أثناء صلاتها عام (١٣٧٦م)، قائلة: "**لقد كشف الله أسراره، وأظهر عجائبه بطريقة جعلت روحي تبدو وكأنها خارج جسدي، وكنت غارقة في الفرح لدرجة لا يمكنني وصفها بالكلمات. لقد أخبر عن أسباب الاضطهاد التي تتعرض له الكنيسة المقدسة الآن، والتجديد والارتقاء القادمين لها**" (٦٣).

وقد أُطلق على الأسلوب الجسدي في التصوف لـ "كاترين من سيينا"، وكذلك لـ"كاترين من جنوة"، ولا سيما تركيزهما على التواصل مع جسد المسيح بشكل خاص اسم "أنثوي"، وربطها بالتصوف الزفافي، كما مثلتا أحد مسارات الصوفية النسوية. وكان لكل منهن تجاربهن المباشرة مع الله، ولم يكن الصيام المستمر وإطعام المرضى مجرد أسلوب حياة لهن بل كان استمرارًا لتجاربهن، فقد عشن تعاليمهن الإلهية، وظهرت تجربتهن مع الله في أفعالهن، كما أطعمتا الفقراء، وتحملن نجاسة المرضى الذين قمن بالاعتناء

---

(61) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p.p. 27, 28, 33.

(٦٢) سامي حلاق اليسوعي، ***لاهوت النساء***، ص ص ٩، ١٠.

(63) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p. 17.

بهم. وشعرنَ كلهن أن الإحساس الشديد بالجوع يمثل اندماجًا مع آلام المسيح على الصليب، والتعرض لمثل هذا الألم من أجل خلاص العالم (٦٤).

ثالثًا: الاستنارة الروحية والرؤى الصوفية عند "هيلديجارد من بينجن".

لقد صوَّرت "هيلديجارد" نفسها كصوت "للنور الحيّ" (الله)، وقادتها تجاربها الصوفية إلى ضرورة الكشف عن هذه الرؤى(٦٥)، وأن تكتبها في مؤلفاتها، وهو ما قامت به؛ حيث كتبت ثلاثيتها اللاهوتية والمتمثلة في ثلاثة كتب: "**سكيفياس**"، و"**مزايا الحياة**"، و"**الأعمال الإلهية**"، وتناولت فيها موضوعات مختلفة حول الكون، والألوهية، والثالوث، وتفسير للكتاب المقدس، هذا فضلًا عن القضايا الأخلاقية والاجتماعية، والطبية، ... إلخ.

وأعلنت "هيلديجارد" أن هذه الرؤى كانت إلهامًا إلهيًا، وليست نتيجة لألم أو لذهان (أحد أنواع الأمراض النفسية) أو أحلام، وأشارت أنها مستوحاة إلهيًا؛ حيث قالت في كتاب "سكيفياس" إن هذه رؤى حقيقية تتدفق من الله، هي صوت من السماء، فتحت السماء، ونزل نور لامع للغاية اخترق عقلي، وأشعل قلبي، ليس مثل النار بل مثل اللهب الدافئ، كما تدفئ أشعة الشمس أي شيء تلمسه. فقد اكتسبت حكمة لم تكن قد اكتسبتها من قبل رغم قضاء أكثر من ثلاثين عامًا في الرهبنة(٦٦).

وتزعم "هيلديجارد" أن الله هو الذي يأمرها بالكتابة قائلة: "لم أُقدم شيئًا من الشعور الإنساني، ولكن ما أدركته كان من الأسرار السماوية. سمعت صوتًا من السماء، يُعلمني، وقال: "اكتبي ما ترينه بالعيون الداخلية، وتدركينه بالروح، لتكون مفيدة للبشر؛ حتى يفهم البشر خالقهم". ويكشف هذا الأسلوب في التعبير عن الكلمة المسموعة والمفهومة داخليًا، وعلى حقيقة أن ما تكتبه كُشف عنه لها بوعي كامل وليس في الأحلام(٦٧). ويمكن إرجاع هذه الرؤى إلى الحساسية التي كانت تتمتع بها؛ حيث كانت تخفيها في بدايتها، غير أن الله –حسب زعمها– أوحى لها بأن تكشف للعالم ما أُعلن لها، لقد كانت لديها مهمة تعليمية ونبوية تشابه مهمة كاتب سفر "الرؤيا"، ولا ينبغي التخلي عنها، وكانت رؤاها رمزية مجازية تقدم تعليمًا عقديًا، وأخلاقيًا، ونبويًا، ويظهر فيه نزعة الخيال الألماني، ورغم وجود شكوك كثيرة من ناحية كونها نبوءة حقيقية فإن معاصريها تأثروا بها تأثرًا كبيرًا(٦٨).

وأرسلت "هيلديجارد" رسالة إلى رجل الكنيسة الأهم والأكثر تأثيرًا في عصرها، وهو "برنارد من كليرفو" عام (١١٤٦م)، وصرحت له بأنها ممتلئة برؤى لاهوتية، وأنها كانت تكتب أغانيَ وموسيقى

---

(64) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p.p. 4, 16.
(65) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p. 312.
(66) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p.p.4, 43, 44.
(67) María Jesús Soto-Bruna, ***Religious Vocabulary on Creation: Eriugena, Hildegard of Bingen, Eckhart,*** Licensee MDPI, Basel, Switzerland, Religions, 14, 1024, 2023, p. 5.
(٦٨) بي بورات، *تاريخ الروحانية المسيحية*، ص ص ٩٤، ٩٥.

للكنيسة دون أن يكون لديها أي تدريب. وكانت تعاني من الآلام والشكوك، وتتساءل: هل يجب عليها وهي راهبة غير متعلمة أن تواصل مثل هذه الأنشطة(٦٩)؟ قائلة: "**أبي الفاضل برنارد، أنت المبجل للغاية بفضل قوة الله. أنت الذي تُرعِب الجهل في العالم؛ أنت الذي تحترق في حب ابن الله؛ أنت حريص على كسب الرجال لراية الصليب المقدس؛ لخوض الحروب مع الجيوش المسيحية ضد الوثنيين. يا أبي، أطلب منك، بالله الحي، أن تستمع إلى أسئلتي، أنا قلقة بشأن رؤية غامضة ظهرت لي، لأنني لم أرها بعيون الجسد. فأنا، البائسة في وجودي الأنثوي، رأيت عجائب عظيمة في طفولتي، وعجز لساني أن يعبر عنها، إذا لم يعلمني روح الله أن أؤمن، ....، لأنه منذ أن كنت طفلة لم أشعر بالأمان، ولا لساعة واحدة! هل يمكنك أن تكتشف لي عن حقيقة هذا، لأنني أعرف المعنى الداخلي للمزامير والإنجيل الذي يلمس قلبي وروحي، وأعطني جوابًا، لإني جاهلة بكل تعليم في مثل هذه الأمور، ....، فعند سماع حكمتك وتقواك أشعر بالراحة، لأنه يوجد الكثير من الانقسامات بين الناس، ولم أجرؤ على التحدث عن هذه الأشياء، ....، أريدك أن تطمئنني، رأيت في رؤى قبل عامين رجلاً يُحدق في الشمس دون أن يرتعش، وشجاعًا، وبكيت خجلاً!، ....، هل أن تكشف لي ما إذا كنت تريد أن أصرح بهذه الرؤى أم يجب أن أصمت**"(٧٠).

وتظهر "هيلديجارد" في هذه الرسالة احترامًا عميقًا لـ"برنارد"، مُشيدةً بتقواه، وشجاعته، وقدرته على محاربة الجهل ونشر الإيمان. وتُعرب عن قلقها تجاه الرؤى التي رأتها، والتي لازمتها منذ الطفولة. رغم أنها تفهم المعنى الروحي للمزامير والإنجيل، فإنها تشعر بالجهل التام فيما يتعلق بتفسير هذه الرؤى وتأكيد صحتها. وتطلب من "برنارد"، أن يكشف لها حقيقة هذه الرؤى ويطمئنها، خاصةً في ظل الانقسامات التي تعيشها الكنيسة والمجتمع، والتي منعتها من التحدث عنها علانية.

كما كتبت رسالة أخرى إلى البابا "يوجنيوس الثالث" عام (١١٤٨م)، وصورت فيها نفسها على أنها "ريشة تُرفع على الريح"، واستمدت هذا الوصف من العالم الأرستقراطي الألماني الذي تنتمي إليه، ومن الكتاب المقدس والطقوس الرهبانية التي كانت على دراية بها(٧١). حيث قالت له: "**أبي الجميل، رغم إنني إنسانة صغيرة وغير مهمة، فإنني أكتب إليك الآن، في رؤيا حقيقية بإلهام صوفي عما يرغب الله أن أقوم به. أبي المبجل، لقد أتيت إلى أرضنا في مهامك الرسمية، كما أراد الله، ورأيت شيئًا من الرؤى الحقيقية التي علمني إياها "النور الحي"، ....، إن الضوء ذاته لم يتركني، بل ينير روحي منذ الطفولة، ....، لكن عديدًا من الحكماء ذوي الميل الدنيوي رفضوا هذه الرؤى؛ لتقلب قلوبهم، لأنها تأتي من امرأة فقيرة خُلِقت من ضلع "آدم"، ولم تُعلَّم من قبل الفلاسفة، فقد رأيت أن ملك قويًا جلس على عرش تحمله أعمدة شاهقة مغطاة بأشرطة ذهبية، ومزينة باللؤلؤ والأحجار الكريمة. واختار الملك لمس ريشة**

(69) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 7.
(70) Hildegard of Bingen, ***Letter Hildegard to Bernard of Clairvaux***, Letter I, p. 50.
(71) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 21.

صغيرة، فرفعتها رياح قوية فلم تسقط. ....، ويقول: "عِدي هذا للكتابة؛ ليستقبله أولئك الذين يسمعونني، اجعليها خضراء، لا ترفضي هذه أسرار الله"(٧٢). كما تحدثت "هيلديجارد" حول الرؤية نفسها في رسالتها إلى "**أودو من سواسون**"، قائله بنفس مضمون رسالتها السابقة، وعند تفسير هذه الرؤية يتضح أن الهواء يرمز إلى القوة الإلهية التي تلهمها لما تحتاجه في الكتابة والتعليم(٧٣).

وهناك عديد من الرؤى المتشابهة لـ "هيلديجارد"، والتي تتضمن أوامر إلهية لها بالعمل، وذلك وفقًا لما طرحته في "**سكِيفيَّاس**"، والتي تستند إلى رؤى إلى أنبياء العهد القديم، وخاصة "أرميا"، وتزعم بأنها تسمع صوت الله يتحدث إليها: "**أيتها الأرض البائسة، تحملين اسم امرأة، ولم يتم تعليمك أيًّا من العقائد، فمن خلال جمع معرفتك بإسهام الفلاسفة أنتِ فحسب من لمستها داخليًّا بنوري، ناري تحترق مثل الشمس، واصرخي بصوت عال، واشرحي، واكتبي هذه أسراري التي ترينها وتسمعينها، لا تخافي، تحدثي عن هذه الأشياء التي تفهميها بروح حتى أتمكن من النطق بها من خلالك"**(٧٤).

وشرحت "هيلديجارد" رؤاها بأن الضوء الذي أراه ليس مقيدًا بمكان واحد، ولكنه أكثر سطوعًا من السحابة التي تحمل الشمس؛ ولا يمكنني قياس ارتفاعه أو طوله أو عرضه، وهو معروف لي كـ"انعكاس الضوء الحي" مثلما تظهر الشمس والقمر والنجوم في المياه. وأن كل ما أراه أو أتعلمه في هذه الرؤية، أحفظه في ذاكرتي لفترة طويلة؛ حتى أتمكن من استدعاء أي شيء رأيته أو سمعته؛ وأرى وأسمع وأفهم في الوقت نفسه، وكأنني أتعلم في هذه اللحظة ما أفهمه، لكن ما أراه لا أفهمه، لأنني جاهلة. والكلمات التي أكتبها لقد رأيتها وسمعتها في الرؤية؛ ولا أضع كلمات أخرى غير تلك التي أسمعها، لست مُعلمةً للكتابة مثلما يكتب الفلاسفة؛ والكلمات في هذه الرؤية ليست مثل تلك التي تصدر من فم الإنسان، ولكن مثل اللهب أو سحابة يحركها الهواء الصافي(٧٥).

كما تصور "هيلديجارد" دور الكنيسة الخلاصي في تطهير البشر من الخطايا، قائلة: رأيت ما هو أشبه بصورة امرأة عظيمة، مثل مدينة عظيمة، رأسها بمثابة تاج صُمِّمَ بطريقة معجزة، وكانت تلتف حول ذراعيها أشعة ترسلها من السماء إلى الأرض، ويشبه جسمها شبكة بها ألف عين من خلالها تدخل أعداد كثيرة، وليس لها سيقان أو قدمان، بل ظلت منطرحة أمام المذبح الذي أمام الله، وكانت تحتضنه بيدين ممتدتين، ولم أستطع فحص ثيابها، لأنها كانت دائمًا محاطة بالضياء، وكان على صدرها هالة تتلألأ بنور أحمر، وقالت: "يجب عليَّ أن أُنجب أطفالًا، ثم رأيت ملائكة يسرعون مثل البرق، يعدون أماكن في داخلها للبشر الذين المتوقع مجيئهم، ثم رأيت أطفالًا من ذوي البشرة السوداء، يتحركون على الأرض وفي الهواء مثل السمك وهو يسبح في الماء، ثم يدخلون في عيون الشبكة التي كانت مفتوحة لكل الذين

---

(72) Hildegard of Bingen, ***Letter Hildegard to Pope Eugenius III***, p. 90.
(73) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 21.
(74) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p. 33.
(75) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 14.

يرغبون في الدخول. وكان هناك نورًا رائعًا ظهر لي ....، وقام بإزاحة البشرة السوداء من هؤلاء الأطفال، ثم ألقاها بعيدًا، ثم قامت هي بإلباسهم رداءً أبيضَ، وجعلت عيونهم تتلألأ بنور ساطع، وقالت لكل واحد منهم: "اطرح بعيدًا ثياب الخطيئة البالية، والبس رداء القداسة الجديد، لأن باب ميراثك مفتوح لك"، وتشرح بأن المرأة العظيمة ترمز إلى الكنيسة، وهي عروس المسيح، والتاج الذي يُزيّن رأسها يرمز إلى الرسل، والشهداء، والقديسيين، أما الأطفال فيطهرهم المسيح بماء القداسة، فتتبدل بشرتهم وتصبح بيضاء كالثلج (٧٦). وعلى الرغم من كثرة الصور التشبيهية والتعبيرية التي استخدمتها في وصفها للكنيسة، فإن وصفها لها من شأنه أن يقلل من دور الإرادة البشرية في التوبة والخلاص الديني، وتعطي قوة أكبر للكنيسة كسلطة مستقلة، وكأنها هي فحسب التي تمنح الخلاص.

وصورت "هيلديجارد" نفسها نبيَّة تلقت ما تقوله ليس من خلال المعرفة البشرية بل من خلال الإلهام الروحي، ولم تكن "هيلديجارد" تستطيع منافسة أعضاء النظام البندكتي الذكور الأكثر تعليمًا منها، وكامرأة يمكن الآن مساواتها بهم بفعل استنارتها الروحية. ويمكن ملاحظة هذا في تأكيدها على التواضع الأنثوي، وجعل الأنثوية كضعف يمثل تعبيرًا عن ثقة قوية بالنفس، ليس فحسب لها، ولكن أيضًا لجميع النساء الأخريات، فكان يستخدم التصوير السلبي لهن، لأن الله فيما كان يُعتقد يختار الضعاف منهن من أجل أن يتحدث لهن(٧٧). وتعطي انطباعًا بأن ما ظهر في خيالها هو ما رأته حقًا، وكتبت ما رأته، وكان يوجهها إلهامها، وهو صوت الضوء الحي، وإلهامها مثل إلهام أنبياء العهد القديم: "حزقيال"، و"أيوب"، و"أشعياء" الذين تستشهد بهم في رؤيتها، وكنبية، فلديها رسالة اجتماعية لمعاصريها، وهي تحقيق العدالة(٧٨).

وتجدر الإشارة إلى أن "هيلديجارد" تلقَّت تعليمها في الثقافة البندكتية، وكانت على دراية بالنصوص المسيحية المبكرة، وآباء الكنيسة مثل "جيروم" و"أوغسطين"، وترى أنه لا يمكن للمرء أن يتحدث عن الله إلا بلغة رمزية واستعارية، وتمتزج رؤاها بالتأويلات البندكتيَّة، وذلك، باستخدام صور حية؛ لتعكس جمال الخليقة، وعمق الكون، وسرَّ الإلهي، كما أن ما يُميّز كتاباتها اللاهوتية مقارنة بالكتابات الأخرى التي سادت العصور الوسطى هو تعبيراتها البصرية بدلاً من التعبير اللفظي، وذلك من خلال تفاعل مُعقَّد بين العالم المرئي وغير المرئي، والعالم الصغير والكبير، والجسد والروح؛ لتشير إلى الترابط بين الخليقة والتاريخ والمسؤولية الإنسانية (٧٩).

(٧٦) بي بورات، تاريخ الروحانية المسيحية، ص ٩٥.

(77) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p. 33.

(78) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 23.

(79) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p. 312.

فقد عرضت "هيلديجارد" رؤاها في كتابها "سكيفياس"، والذي يمثل مساهمتها الرئيسة في اللاهوت، وأن هذه المعرفة تستقبلها دون استخدام أية حواس، وهي إحدى صفات الرؤية الصوفية، وتستقبل هذه المعرفة دون استخدام أية حواس طبيعية، وهو أهم ما يميز التجربة الصوفية.

فذهبت في رؤيتها الأولى، والتي بعنوان "الله المتعالي يظهر نفسه"، أنها ترى موجودًا فائق الوصف، وهي صورة واضحة لله، والذي أطلقت عليه اسم "المملكة الأبدية"، كما رأت مشاهد عديدة مرتبطة بالرؤية، مثل صورة مليئة بالعيون من جميع الجهات، وبها نوافذ صغيرة، وتشرح أن العيون تظهر الخوف من الله(٨٠). وتجدر الإشارة إلى أن هذا التصوير الرمزي غني بالدلالات، فتُشير العيون التي من جميع الجهات إلى شمولية الإدراك الإلهي، فالله يرى كل شيء، ولا يخفى عليه شيء. كما يمكن أن ترمز إلى اليقظة الروحية أو الوعي المستمر. وترمز النوافذ الصغيرة إلى النعمة والمعرفة التي تسمح بالاتصال بين العالم الإلهي والعالم البشري.

أما رؤيتها الثانية، بعنوان "الخلق والسقوط"، وفيها تصف الجنة، ثم تصف مشهدًا مخيفًا، يتمثل في حفرة عريضة وعميقة ينبعث منها دخان ونار برائحة كريهة، وينتشر سحاب أسود، كما يوجد ثعبان ضخم، كما أظهرت خطورة الكبرياء، وبسببه وجد الاغتراب بين الله والإنسان، تمامًا مثلما فعل الشيطان بين الإنسان والله(٨١). وهنا تقدم "هيلديجارد" رؤية للجنة، ثم تنتقل لوصف مشهد مخيف للغاية، مع التركيز على خطورة الكبرياء كسبب رئيس للاغتراب بين الله والإنسان. حيث تبدأ بوصف الجنة، وهي الحالة المثالية للوجود والقرب من الله. ثم تنتقل مباشرة إلى مشهد مخيف ومرعب يُمثل الجحيم، وتشير الحفرة العريضة والعميقة إلى الهاوية والسقوط، أما الدخان والنار ذات الرائحة الكريهة، فتشير إلى العذاب، الفساد، والمعاناة الحسية والنفسية، أما السحاب الأسود، فيرمز إلى الظلام، اليأس، وغياب النور الإلهي، ويرمز الثعبان الضخم إلى الشر، والشيطان، والخطيئة الأصلية.

أما رؤيتها الثالثة، فتشرحها بقولها إن الشكل البيضاوي يرمز إلى البشرية، ولكن قدر لها أن تتعرض لعديد من المحن، و"النار" تمثل المسيح على الأرض، ولا تذكر الاتحاد بين المسيح والبشرية، كما يتضح من الشكل البيضاوي داخل النار. والعاصفة المحيطة بالنار هي بداية الخطيئة البشرية، لكن "النار البيضاء" تمثل الكنيسة التي تدعو إلى الإيمان، أما الكرة الرملية والجبال، فيرمزان إلى بقاء الإنسان وإرادته. ورغم أن الإنسان يواجه عديدًا من الهزائم، فإنه سينجو لأنه محمي بالله من خلال الوحدة معه، والكنيسة التي تحيط به وتغمره لأنه جزء منها(٨٢).

ويتضح من تفسير "هيلديجارد" لهذه الرؤية أنها تستخدم رموزًا لتُفسر العلاقة المعقدة بين الإنسانية المتألمة والمسيح المخلص، وتُبرز دور الخطيئة والكنيسة في هذه العلاقة، وتؤكد على الأمل في

---

(80) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p.p. 45: 47.
(81) Ibid, p.p. 45: 47.
(82) Ibid, p. 49

الخلاص من خلال النعمة الإلهية والانتماء إلى الكنيسة. وتؤكد أنه على الرغم من التحديات والهزائم التي يواجهها الإنسان، فإنه سينجو لأنه محمي بالله من خلال الاتحاد معه، وهذا يعني أن الخلاص ليس بقوة الإنسان الذاتية، بل بنعمة وحماية إلهية. وتُضاف الكنيسة كعنصر حماية آخر، فهي تحيط بالإنسان وتغمره لأنه جزء منها؛ مما يُبرز دور الكنيسة كملجأ وحاضنة للمؤمنين.

وتدور الرؤية الرابعة حول الاختلافات بين الروح والجسد، والارتباط بين الروح الإلهي والجسد الفاني، وتؤكد الرؤية على اتحاد الاثنين، والإنسان نفسه يمثل اتحادًا بينه وبين الله، ويمكن أن تُفسد الرذيلة والخطيئة والكبرياء هذا الاتحاد(٨٣). وتُبرز هذه الرؤية أن هناك اختلافات جوهرية بين الروح والجسد. فتُفهم الروح على أنها خالدة وإلهية بطبيعتها، بينما الجسد فانٍ ومادي. ومع ذلك، تُؤكد الرؤية بقوة على اتحاد هذين الكيانين، أي الروح الإلهية والجسد الفاني، في تكوين الإنسان. وهذا الاتحاد يمثل اندماجًا، ويُشكِّل الكينونة البشرية. كما أن الإنسان نفسه يُمثل اتحادًا بينه وبين الله، وهذا يعني أن العلاقة الداخلية بين روح الإنسان وجسده هي انعكاس أو نموذج للعلاقة بين الإنسان وخالقه. فالجسد وسيلة للروح في العالم المادي، والروح هي الجزء الذي يربط الإنسان بالله.

أما الرؤية الخامسة، فتناقش الإيمان اليهودي، وتصوره على هيئة امرأة، مع الأنبياء إبراهيم، وموسى، وآخرين (عليهم السلام) داخل جسدها، تُظهر المرأة بأن لديها جذعًا ورأسًا أبيضَ؛ حيث وقف إبراهيم وموسى أمامها – ترتبط هاتان الشخصيتان بنقاء الإيمان– كما تظهر الشخصيات التي كانت متواضعة، والتي رفعت الله فوق كل شيء، فإبراهيم، الذي لم يمنع ابنه من الذبح عندما طُلب منه ذلك، وموسى، الذي أطاع أمر الله بالعودة إلى مصر على الرغم من معرفته أنه سيكون في خطر، فهما يمثلان أفضل ما في الإيمان، والوحدة التي يمكن تحقيقها بفعل التواضع. أما البشر الذين انحرفوا عن الشريعة وتعاظم كبرياؤهم، فهم الذين تجاهلوا الوصايا الإلهية(٨٤)؛ حيث تؤكد "هيلديجارد" في هذه الرؤية على أن التواضع هو الطريق إلى الإيمان الحقيقي والوحدة مع الله، بينما الكبرياء هو السبب الرئيس للانحراف والضلال. حيث تستشهد بأبرز الأنبياء الذين جسدوا التواضع، وتُقدم إبراهيم وموسى كأمثلة بارزة على هذا التواضع والإيمان الحقيقي:، فطاعة إبراهيم في عدم منع ابنه من الذبح يجسد التسليم الكامل لإرادة الله، وهي ذروة التواضع والإيمان. و"موسى" في طاعته لأمر الله بالعودة إلى مصر رغم الخطر، فتُمثل الإخلاص والتفاني في سبيل الله.

وتجدر الإشارة إلى أن "هيلديجارد" عاشت رؤاها الصوفية في حالة من اليقظة على خلاف "إليزابيث من شوناو" *Elizabeth of Schönau* (١١٢٩– ١١٦٤م) التي عاشت رؤاها في حالة من السُّكر، ورغم أنها أقل تعليمًا من "هيلديجارد" إلا أنها كان لديها شعور بدعوتها النبوية، وهي تقارن نفسها

---

(83) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p. 50.
(84) Ibid, p.p. 52, 53.

بشخصيات العهد القديم، لأنه بينما كان الرجال منغمسين في الكسل، امتلأت النساء المقدسات بروح الله، حتى يتمكنَّ من التنبؤ(٨٥). وتتفق رؤى "هيلديجارد" في كثير منها مع الأسلوب الرمزي الذي تبناه القديس "برنارد" في رؤاه الصوفية(٨٦). ولا يمكن فهم رؤى هيلديجارد الصوفية وتفسيرها، إلا من خلال عاملين رئيسين، وهما: تفسير "هيلديجارد" لهذه الرؤى وفقًا لما طرحته في مؤلفاتها، فضلًا عن استخدام المنهج الهيرمنيوطيقي، وذلك لفك شفرات رمزيتها الصوفية حتى يمكن فهمها بالشكل الأمثل.

ويعد **مفهوم الاتحاد الصوفي** من المفاهيم الفلسفية الصوفية التي عالجتها "هيلديجارد" في صوفيتها النسوية، إلا أن الاتحاد عندها لم يكن اتحادًا جسديًّا أو روحيًّا بل اتحادًا مجازيًّا من خلال تحقيق مفهوم التواضع، فمتى تحقق التواضع عند الإنسان سيتحد بالله فيما تعتقد "هيلديجارد".

لم تهتم "هيلديجارد" بالاتصال الجسدي بينها وبين الله، بل اهتمت- مثل "برنارد"- بالتركيز على "التواضع"، واستخدامه كمسار للاتحاد؛ حيث تُركز على الاتحاد بين الإنسان والله، فبينما لا تتحدث عن اتحاد فردي جسدي، بل عن اتحاد جمعي بين البشرية والله، وأكدت على الاتحاد بين الإنسان والله، وتحديدًا المسار المؤدي إليه، وتحدد مسار الاتحاد مع الله بمفهوم عايشته هي نفسها، ألا وهو "التواضع"، فالاتحاد هو نتيجة للتواضع، ويجب على القارئ أن يفهم أهمية هذا الاتحاد وطريقة تحقيقه، لأنه المؤدي إلى الجنة. ولم تكتب "هيلديجارد" عن الاتحاد بين الخالق والمخلوق، بل أكدت عليه، فلم يكن لديها رؤى لاتحادها مع الله، بل اتحاد شامل، بين الله والإنسان بشكل عام. وأوضحت الأنواع الثلاثة للاتحاد؛ حيث كتبت عن الاتحاد بين الجسد والروح، ثم كيف تطور إلى اتحاد بين الفاني والإلهي، وأخيرًا، تجلى في شكل الاتحاد بين الإنسان والله(٨٧).

وبدلاً من تشجيع "هيلديجارد" على اتحادها الخاص مع الله أو مع المسيح بشكل فردي، أكدت على اتحاد الكنيسة مع المسيح؛ وبكونها جزءًا من الكنيسة، فهي جزءٌ من هذا الاتحاد، وبالتالي، فإن الكنيسة نفسها هي اتحاد بين الإنسان والله. كما أن الاتحاد عندها يمثل رابطة بين السماوي والأرضي، أي اتحاد بين الكنيسة والله، وهذا يعني أن الاتحاد والتصوف ليسا ممكنين دون الفعل الإلهي، ويمكن للمرء أن يُعد نفسه للاتحاد، لكنه لا يتحقق إلا عندما يهبه الله له. ويرتبط هذا بفهم الحياة الأبدية، كما لو كان الإنسان يعد نفسه للجنة من خلال الأعمال الصالحة والاعتراف، إلا أنه لا ينالُها إلا بنعمة الله؛ على الرغم من أنه يجب عليه أن يطيع القوانين الإلهية، إلا أنه لا يزال مخلصًا بإرادة الله، فلا تتم مباركته حتى يتواصل الله معه، ويوضح هذا الارتباط العلاقة بين التصوف والخلاص (٨٨). وبذلك، ترى "هيلديجارد" أن

---

(85) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 16.

(86) Constant J. Mews, ***Hildegard of Bingen and the Hirsau Reform in Germany***, In, "A Companion to Hildegard of Bingen", Eds. Beverly Mayne Kienzle, Debra L. Stoudt, George Ferzoco, BRILL, Boston, 2014, p.69.

(87) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p.p. 43, 54, 55.

(88) Ibid, p.p. 60, 64.

اتحاد الكنيسة بالمسيح هو الأساس، وبما أن الفرد جزء من الكنيسة، فهو بذلك يشارك في هذا الاتحاد. وهذا يعني أن الكنيسة نفسها هي رابطة حيوية بين الإنسان والله، وتُجسد الاتحاد بين ما هو سماوي وما هو أرضي. كما أن الاتحاد والتصوف لا يمكن أن يتحققا دون تدخل إلهي، ويمكن للإنسان أن يُعد نفسه لهذا الاتحاد من خلال الأعمال الصالحة والاعتراف، لكنه لا يناله إلا كهبة ونعمة من الله، فالإنسان يُجهز نفسه للجنة بالأعمال الصالحة، لكن دخوله إليها يعتمد على نعمة الله وإرادته، حتى لو أطاع القوانين الإلهية.

كما أشارت "هيلديجارد" إلى أن التواضع تسبب في ولادة ابن الله من العذراء، معلنة أن الهبة الإلهية كانت مكافأة على التواضع، فكان اندماجًا بين الإنسان والله، واتحادًا بين الفاني والإلهي، ولا تختبر "هيلديجارد" مباشرة الاتحاد مع الله، وليس لديها زواج من المسيح، لكنها أدركت أهمية الاتحاد بين الرجل والمرأة، والعلاقة التي تربطهما معًا كالاتحاد بين الإنسان والله. وهو ما أكدته عليه بقولها: "دع أي شخص يرغب في قهر الشيطان أن يسلح نفسه بالتواضع" (٨٩).

لقد سمحت رؤى "هيلديجارد" بخلق أفكار أنطولوجية، والتي تُظهر درجة من الاتحاد والاختراق المتبادل بين العالمين الروحي والمادي(٩٠). فبدلاً من رؤية هذين العالمين ككيانين منفصلين تمامًا، تُظهر رؤاها أنهما متداخلان ومتأثران ببعضهما البعض بشكل عميق. وهذا يعني أن ما يحدث في العالم الروحي له تأثير على العالم المادي، والعكس صحيح، وأن الوجود ليس مقسمًا، بل كيان واحد بين أجزائه علاقات ديناميكية وجدلية في الوقت ذاته. وتجدر الإشارة أن الرؤى التي صرحت بها كانت رد فعل لبداية ظهور التيار العقلي آنذاك، فقد حدث نوعٌ من الموازنة بين الرؤى الصوفية والتيارات العقلية.

رابعًا: الألوهية في تصوف "هيلديجارد من بينجن"

لقد ذهبت "هيلديجارد" إلى وصف الله بـ"النور الحي"، وأن الحياة الروحية والبيولوجية هي هبة منه، كما أن تهديد الحياة الدينية والروحية من قبل رجال الدين المنافقين الذين اكتسبوا هذه المكانة دون وجة حق؛ لهو اعتداء على هذه الحياة(٩١). وتقول: "**تمثل النار الساطعة التي أراها هي الله الحي القدير، أنه يظل غير قابل للقياس، لأنه لا يمكن تقسيمه، وهو بلا بداية ولا نهاية، ولا يمكن فهمه بالمعرفة الإنسانية، لأنه الكمال الذي لا يمكن لأحد أن يصل إلى نهاية**" (٩٢).

لقد اتخذت "هيلديجارد" "النار الساطعة" رمزًا لله، ويُعدُّ هذا التشبيه رمزًا قويًّا ومألوفًا في التقاليد الدينية، فلا تُشير هذه النار إلى التدمير، بل إلى النور، والقداسة والتطهير، والحضور الإلهي، والحيوية والقوة، فالنور الذي يُبدد الظلمة ويُكشف الحقائق، مما يُشير إلى أن الله هو مصدر كل معرفة وإدراك،

(89) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p. 48.
(90) Jane Duran, ***Hildegard of Bingen: A Feminist Ontology***, p.p. 157, 161.
(91) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p.p. 51, 52.
(92) Hildegard of Bingen, ***Scivias***, Part II, Vision 1, p. 59.

والنار تُطهر وتُنقي، مما يعكس طبيعة الله المقدسة وقدرته على تطهير البشر من الخطايا، وهي متقدة وفعَّالة، مما يعكس قوة الله وقدرته الفعَّالة في الكون.

وذهبت "هيلديجارد" إلى القول بأن **البشرية من صنع الله، ولأن البشر ينظرون إلى السماء ويقفون على الأرض، ويحكمون على جميع المخلوقات، فإنهم ينظرون إلى ارتفاع السماء في أرواحهم. ولهذا، فالإنسان كائن سماوي في روحه اللا منظورة، وأرضي في جسده المنظور، فعندما أراد الثعبان (الشيطان) بسبب كبريائه تدمير انسجام الملائكة، حافظ الله عليه بقوته العظيمة، ولأنه كان يمتلك مجدًا عظيمًا في العالم السماوي، فقد اعتقد أنه يستطيع فعل ما يريد، ويستطيع الحصول على كل ما يريد، وبسبب غطرسته فَقَدَ كل شيء**"(٩٣).

وتُشير "هيلديجارد" إلى أن التوازن بين الجانب الروحي والمادي في الإنسان، والتواضع أمام الله، هما مفتاح الحفاظ على العلاقة السليمة مع الخالق، كما تقدم "هيلديجارد" رسالتين إلى جمهورها، الأولى، وهي: طبيعة الإنسان المزدوجة، أي إن الإنسان هو جسر بين السماء والأرض، وروحه تتوق إلى الإلهي وجسده مرتبط بالمادي، أما الثانية، فهي خطر الكبرياء، فقصة سقوط الشيطان تُعد تحذيرًا من أن الكبرياء والتكبر يؤديان إلى فقدان النعم الإلهية والابتعاد عن الإرادة الإلهية.

كما أخذت تدعو البشر للتأمل والتفكير في المعجزات التي منحها الله لهم، بقولها: "**انظر إلى الذي رآك في اليوم الأول، الذي أعطاك عيونًا ترى بها، والذي أعطاك عقلاً لتفكر به، فكِّر في الذي جعل البشر مرآة لجميع معجزاته، بحيث يضاؤوا بالمعرفة الإلهية، كما هو مكتوب "أنتم آلهة وأنتم جميعًا أبناء العليّ"، كلما وجه العقل البشري تفكيره إلى الله، سيتمكن من الوصول إلى الذي ليس له بداية ولا نهاية، لأن الله يكشف عن نفسه بمعرفة الخير والشر**"(٩٤) .

وهنا دعوة من "هيلديجارد" إلى إعمال العقل في الألوهية، فمتى حدث هذا، استطاع الإنسان أن يثبت وجود الله عقلانيًا، وبالتالي، يمكن لنا استنتاج أن "هيلديجارد" تارة تدعو إلى اللاهوت الإيجابي الذي يقر بإمكانية البرهنة على وجود الله عقلانيًا، وتارة أخرى تدعو إلى اللاهوت السلبي والذي يرى أن الله خارج حدود القدرات العقلية واللغوية التي يتمتع بها الإنسان، وكون "هيلديجارد" تجمع بين الاتجاهين، فهذا يعني محاولتها في جعل خطابها الصوفي النسوي يكون مقبولًا من قبل اللاهوتيين من ناحية والجدليين من ناحية أخرى.

كما أن رسالة "هيلديجارد" المعنونة بـ "**رسالة إلى أودو من سواسون**" هي دليل على قدرتها على المشاركة في الجدل اللاهوتي في عصرها، فقد سمع "أودو" أستاذ اللاهوت في باريس عنها في مجمع "ترير" (١١٤٧–١١٤٨م)، وسألها عن رأيها في تصريحات "جيلبرت من بواتييه" *Gilbert of Poitiers*

(93) Hildegard of Bingen: ***The Book of Divine Works***, Part 3, Vision 3, Fr.2, p. 4.
(94) Hildegard of Bingen, ***Letter Hildegard to Hartwig***, Letter 11, p. 93.

(١٠٧٦- ١١٥٤م) حول الثالوث، والتي نوقشت في مجلس "ريميس" عام (١١٤٨م)، فقد سعى "جيلبرت" إلى إحداث تمييز حقيقي بين الله والألوهية، وأطلق على الألوهية اسم طبيعة الله؛ حيث يكون الثالوث واحدًا، ولكن كل ما له وجود خلال هذا الشكل ليس واحدًا، كما اعتقد بثلاثة أقانيم. لذلك رأى أن هناك فرقًا حقيقيًا بين الأقانيم الثلاثة من ناحية، والوجود الإلهي ذاته. وبالتالي، أنكر أن الآب والأبوة لهما الهوية نفسها، وهو موقف وضعه في معارضة مع العقيدة الكنسية(٩٥).

حيث قالت "هيلديجارد": إنني أعتمد كليًا على مساعدة الله، وأقول لك: سألني أحد ما عما إذا كانت أبوة الآب وألوهية الله متطابقة أم لا؟ وأجيب بفضل النور الحقيقي (لله)، وليس اجتهادًا مني، أن الله هو الأبوة والإلوهية معًا، لأننا نحن البشر لسنا قادرين على معرفة الله بالطريقة التي نتعلم بها عن إنسانية البشر الآخرين أو عن نوعية أفعالهم، لذلك يتحدث النور الحي بكلمة السر للحكمة: الله كامل وكامل ويتجاوز بداية الزمان، فلا يمكن تقسيمه أو تحليله بالكلمات كما يمكن للإنسان. الله كُلي، وليس سوى كذلك، لا يمكن إضافة شيء إليه، ولا يمكن أخذ شيء منه. لأنه هو الأبوة والإلوهية معًا، لأنه قيل "أنا هو أنا"، وهو الكمال نفسه. كيف نفهم هذا؟ من خلال نشاطه وإبداعه وكماله من يقول أن الله ليس أبوة وألوهية فهو يسمي نقطة وسطى دون دائرة. ومن يصر على وجود نقطة وسطى دون دائرة ينكر الواحد الأزلي. ومن ينكر أن الله هو الأبوة والإلوهية معًا ينكر الله، لأنه يعني أن هناك نوعًا من الفراغ في الله، وهو ليس كذلك. لكن الله كُلٌّ وكل ما في الله هو الله، ولا يمكن للتفكير البشري أن يدرك ماهية الله، لأنه لا يوجد شيء في الله ليس الله. وبما أن الخلق له بداية، فإن العقل البشري يجب أن يجد الله من خلال الأسماء والمفاهيم، لأنه مليء بالأسماء والمفاهيم بطبيعته(٩٦). وبالتالي، لا تنكر "هيلديجارد" التمييز الملموس لماهية الأقانيم فحسب، بل تنكر أيضًا التمييز في الجوهر الإلهي، أي ليس لديها مرجع ثلاثي للوحدانية في ذهنها (٩٧).

وبهذا، تؤكد "هيلديجارد" على الوحدة المطلقة في الألوهية، ولا تفرق أو تفصل بين الأبوة والألوهية، فهما مجرد مسميين لشيء واحد وهو الله المطلق، كما أكدت على وحدة الأقانيم بعضهم مع الآخر في وحدة مطلقة، كما ترفض "هيلديجارد" التمييز في ماهية الجوهر الإلهي، وما يوجد داخل العقل الإنساني فيما يتعلق بأشكال الاختلاف والتمييز ما هي إلا مجرد مسميات فحسب، لا يخضع لها الوجود الإلهي بأي حال من الأحوال.

واستكمالًا للجدل الذي كان موجودًا بين "أودو من سواسون" وبين "جيلبيرت" اهتمت بتوضيح مفهوم "القدرة الإلهية" لجمهورها؛ حيث ترى أن الله يبقى غير قابل للقياس، ولا يمكن تقسيمه، وهو بلا

(95) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 76.
(96) Hildegard of Bingen, ***Hildegard to Odo of Soissons***, Letter 40R, In, Selected Writings, p. 77.
(97) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p.p. 52, 53.

بداية ولا نهاية، ولا يمكن فهمه بأي وميض من المعرفة الخلوقية، فرؤيتها ليست مجرد رؤية فلسفية للعالم المخلوق، بل هي خطاب لاهوتي متكامل(٩٨).

أما بالنسبة لـ"**الروح القدس**"، فهو الشكل الرئيس للثالوث كما تعالجه "هيلديجارد" في رؤيتها الرابعة "الفادي والخلاص"، فيحمي الروح القدس الكنيسة، ويملؤها بالجانب الإلهي الذي يسمح لها بتنقية أرواح الذين يدخلونها، وتذهب إلى أن القربان المقدس هو أحد أشكال الاتحاد، بمعنى وجود الإلهي جسديًّا داخل الإنسان، ويتم إظهاره على أنه روح الحياة الأبدية مثل الخلاص، وتُظهر هذه الصورة أن التصوف لا يُقصد به فقط كدليل على الحياة، بل هدف الإيمان والدين(٩٩).

أما بالنسبة لقضية الثالوث، فترفض "هيلديجارد" إمكانية وجود معرفة كاملة عنه، ولا يمكن الحصول عليها من تأمل المخلوقات، وهو ما جعل الفلاسفة القدماء لم يتمكنوا من رؤية حقيقته(١٠٠). حيث تقول: "**هناك ثلاث فضائل في الثالوث، الأولى، المحبة الإلهية، والثانية، التواضع، والثالثة، السلام، فالمحبة الإلهية والتواضع موجودان في الألوهية التي تتدفق منها النعمة، لأن هاتين الفضيلتين تكشفان أن ابن الله جاء؛ لِتحرير البشرية المضطهدة من الخطيئة، لأن الله محبة في كل أعماله، ويحمل التواضع في جميع أحكامه**"(١٠١).

وقد جانبت "هيلديجارد" الصواب فيما طرحته حول الفضائل الثلاثة للثالوث، فيمكن قبول كون الثالوث يتصف بكل من "المحبة الإلهية" و"السلام"، لأن المحبة هي جوهر الله، والسلام هو أحد أسمائه وصفاته الجوهرية، أما التواضع فهو أمر غير مقبول، لأن التواضع يُنسب للمخلوق أمام الخالق. والله في كماله وجلاله لا يُوصف بالتواضع بالطريقة نفسها التي يُوصف بها البشر. المسيح الابن أظهر تواضعًا عظيمًا في تجسده وتنازله وخضوعه للآلام، لكن هذا يُعد فعلًا تنازليًّا، وليس صفة جوهرية للثالوث في ذاته قبل الخلق أو التجسد. وأن القول بأن التواضع "موجود في الألوهية" قد يكون مبرره أن "هيلديجارد" جعلت التواضع شرطًا أساسيًّا لتحقيق الاتحاد، لكنها قد خلطت بين الإلهي والبشري حول هذا المفهوم.

كما ترى "هيلديجارد" أن الآب، الذي هو أعلى مستوى من التوحيد، ولا يوجد دون الابن أو الروح القدس، وأن الروح القدس، الذي يشعل قلوب المؤمنين، ليس دون الآب أو الابن، والابن ليس دون الآب أو الروح، لأنهم لا ينفصلون في الإلوهية، لأن الآب ليس دون الابن، ولا الابن دون الآب، ولا الآب أو الابن دون الروح القدس، ولا الروح دونهم؛ لذلك يوجد الأقانيم الثلاثة كإله واحد في ألوهية متكاملة(١٠٢)، كما توضح أن العقل البشري قاصر على إدراك الأسرار الإلهية، والتي تتعلق بماهية الله والثالوث؛ حيث

(98) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 23.
(99) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p. p. 61, 65.
(100) Jane Duran, ***Hildegard of Bingen: A Feminist Ontology,*** p. 163.
(101) Hildegard of Bingen: ***The Book of Divine Works***, Part 3, Vision 3, Trans. Nathaniel M. Campbell, Washington, D.C., the Catholic University of America Press, 2018, Part 3, Vision 3, Fr.3, p. 4.
(102) Hildegard of Bingen, ***Scivias***, Part II, vision 2, p. 81.

تقول: "**لا ينبغي للمخلوق البشري أن يبحث في أسرار الله أكثر مما هو مكشوف،...، لأنك لست مخولاً للتحقيق في أسرار الله أكثر مما ترغب الجلالة الإلهية في الكشف عنه**"(١٠٣).

كما اهتمت "هيلديجارد" بشرح مفهوم "القدرة الإلهية" لجمهورها؛ لِتُسهم في النقاش الذي بدأه "جيلبرت من بواتييه" حول طبيعة وحدة الله عندما طلب منها "**أودو من سواسون**" توضيح مفهوم الألوهية؛ حيث ترى أن الله "يبقى" غير قابل للقياس، ولا يمكن تقسيمه، وهو بلا بداية ولا نهاية، ولا يمكن فهمه بأي وميض من المعرفة الخلوقية، فرؤيتها ليست مجرد رؤية فلسفية للعالم المخلوق، بل هي خطاب لاهوتي متكامل(١٠٤).

ويتضح مما سبق أن "هيلديجارد" تنتمي للاهوت السلبي، أو الإلهيات السلبية التي تقر بأن العقل الإنساني ليس لديه القدرة على إدراك الأسرار الإلهية، وكذلك ليس لديه القدرة على إثبات وجوده، لأنه قاصر عن إدراك ماهيته، ويتم الإيمان به قلبيًا خلال تجربة دينية يمر بها الإنسان نفسه.

وتوضح "هيلديجارد" كيف قام المسيح من الموت لتقوية إيمان تلاميذه بقولها: "**ابن الله، المولود في العالم، هزم الشيطان بموته، وقاد شعبه المختار إلى ميراثهم، ....، ولكنك ترى أن "الرجل المملوء بالضوء، ....، ظهر في مجد أعظم مما يستطيع أي لسان بشري التعبير عنه. ويدل هذا على مجد الآب الذي لمس جسد ابن الله النبيل، المولود من العذراء، يرقد في القبر لمدة ثلاثة أيام، من أجل تأكيد أن هناك ثلاثة أقانيم في إله واحد. وهكذا استعاد الروح، وقام من جديد خالدًا بطريقة لا يمكن لأي تصور أو كلمات أن تشرحها. وقدمه الآب بجروحه إلى السماء، قائلاً: "هذا هو ابني الحبيب،" الذي أرسلته ليموت من أجل البشر. ....، وقام ابن الله من بين الأموات وظهر لمدة أربعين يومًا لتلاميذه والنساء المقدسات، الذين حزنوا عليه، ورغبوا بشوق كبير في رؤيته. لقد فعل ذلك لتعزيزهم حتى لا يشكوا بقولهم: "لم نره، لا يمكننا أن نؤمن أنه خلاصنا". لكنه أظهر نفسه لهم في مناسبات عديدة لتعزيزهم حتى لا يسقطوا**" (١٠٥).

كما تُعبر "هيلديجار" عن حب الله الذي يكنه للبشر، فقد أُعلن لنا حب الله، وأرسل ابنه إلى العالم لكي نحيا به، ليس حبه كما أحببنا الله بل أنه أحبنا أولاً، وأرسل ابنه ككفارة عن خطايانا. فلأن الله أحبنا، نشأ خلاص مختلف عن الخلاص الذي كان لدينا في أصولنا الأولى، عندما كنا ورثة البراءة والقداسة، لأن الآب السماوي كشف لنا عن حبه، ومن خلال قوته السماوية أرسل كلمته المقدسة إلى ظلام العالم. وهناك أكملت الكلمة كل الأشياء الجيدة، وأعادتنا إلى الحياة. لقد أعادنا عندما رُفضنا بسبب خطيئتنا، ولم نتمكن من العودة إلى القداسة التي فقدناها (١٠٦).

---

(103) Hildegard of Bingen, ***Scivias***, Part II, Vision 1, p. 70.
(104) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 23.
(105) Hildegard of Bingen, ***Scivias***, Part II, Vision 1, p.p. 71, 72.
(106) Hildegard of Bingen, ***Scivias***, Part II, vision 2, p. 83.

إن تأكيد "هيلديجارد" على حب الله للبشر، لكونه خالقهم بكل ما يوجد فيهم من معجزاته، والذي أرسل لهم أنبياءه لهدايتهم، وهذا يعد في حقيقة الأمر دعوة لمحبه البشر لله، وتغيير للصورة النمطية التي توارثها اللاهوت المسيحي، والتي تصور الله في صورة المهيمن على البشر، تلك الصورة التي توارثتها الكنيسة بوصفها صوت الله على الأرض، وهو ما أدى إلى هيمنتها على البشر وقهرهم، واستنزافهم روحيًا وماديًا ونفسيًا، وهو ما رفضته "هيلديجارد" رفضًا تامًا.

وتؤكد "هيلديجارد" على القدرة الإلهية المطلقة لله، بقولها: إن كل ما هو حي يستمد وجوده من الله، كما جاء في "**سفر أيوب**"(١٠٧): «٧«فَاسْأَلِ الْبَهَائِمَ فَتُعَلِّمَكَ، وَطُيُورَ السَّمَاءِ فَتُخْبِرَكَ. ٨أَوْ كَلِّمِ الأَرْضَ فَتُعَلِّمَكَ، وَيُحَدِّثَكَ سَمَكُ الْبَحْرِ. ٩مَنْ لاَ يَعْلَمُ مِنْ كُلِّ هؤُلاَءِ أَنَّ يَدَ الرَّبِّ صَنَعَتْ هذَا؟ ١٠الَّذِي بِيَدِهِ نَفَسُ كُلِّ حَيٍّ وَرُوحُ كُلِّ الْبَشَرِ»، وهذا يعني أنه لا يمكن لأي مخلوق أن يجهل العلل التي تشكل كينونته ووجوده. فكل الموجودات تشهد أنهم خلقوا بيد القوة العظمى لله، وتعيش جميع المخلوقات، وتتحرك بفعل قدرة الخالق، ليس فحسب أولئك الذين يسعون في الأرض مثل الحيوانات التي ليس لها عقل بل لديهم إلهام الله، لكن أيضًا للبشر الذين يتميزون بالعقلانية والحكمة (١٠٨).

وتقول "هيلديجارد" في **رسالتها إلى إليزابيث من شينوا**: إن الإنسان هو وعاء بناه الله، وملأه بإلهامه حتى تكتمل أعماله فيه. لأن نشاط الله ليس مثل النشاط البشري، بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وظهرت الأعشاب والغابات والأشجار؛ وظهرت الشمس، والقمر والنجوم في وظائفها المختلفة؛ وخلقت الأسماك، والطيور، والحيوانات، التي تخدم البشر كما وضعها الله. ولكن البشر لم يعترفوا بالله، لأنه عندما أعطى الإنسان معرفة عظيمة، فانحرف عن الله. وخدع الشيطان البشرية وجعلهم عصاة، ويجب أن ينتبهوا دائمًا إلى حقيقة أنهم أوعية هشَّة لأنهم بشر"(١٠٩).

وتُعلق في كتابها "**الأعمال الإلهية**" على مقدمة "**يوحنا**" بقولها: "وهكذا ألَّفتُ في نفسي عملًا صغيرًا، وهو الإنسان، وخلقته وفقًا لصورتي وشبهي، وفي مكان آخر تقول إن الإنسان هو لباس الابن، كما أن الجسد هو لباس الروح. ويرى الله الإنسان في مرآته، ويراها بطريقة مختلفة عن الطريقة التي يعتبر بها الأشياء الأخرى. فهو لا يراها في نفسه، بل يخلقها. هذه الخصوصية للفعل الإبداعي الإلهي فيما يتعلق بالإنسان تعني أن الإنسان مخلوق "على صورتي وشبهي". هذه الفكرة تُثير تدينًا كاملًا فيما يتعلق بالإنسان وعمله؛ لأن الإنسان هو نموذج التجلي الإلهي. لذلك، فإن عودة المخلوق إلى أصله ممكنة. وبذلك، يحتل الإنسان المركز في الكون لأنه صورة الله، والأكثر كمالًا بين المخلوقات التي تسكن العالم". فالإنسان هو إمكانية لتجلي الله، ولكن من خلال الفم البشري يُشير الله إلى كلمته التي خلق بها كل الأشياء، تمامًا كما تُنطق جميع الكلمات بالفم بصوت العقلانية. لأن الشخص يُعلن بالنطق، تمامًا كما

(١٠٧) *أَيُّوبَ*، الأَصحَاحُ الثَّانِي عَشَرَ، (٧-١٠).

(108) Hildegard of Bingen, ***Scivias***, Part II, Vision 1, p.p. 59, 60.

(109) Hildegard of Bingen, ***Hildegard to Elisabeth of Schönau***, Letter 201R, In, Selected Writings, p. 122.

صنعت كلمة الله أشياء كثيرة بخلقها، وتُعبِّر الكلمة البشرية عن الكلمة الإلهية، ومن خلالها يُعبِّر الله عن نفسه لمخلوقاته. ويستمر النص بالتركيز على عيني الإنسان: "ففي عيون الإنسان يُعلن معرفته التي يتنبأ بها، ويعرف بها جميع الأشياء، وتُظهر العيون أشياء كثيرة بداخلها لأنها صافية ومائية، تمامًا كما يظهر الظل المنعكس لمخلوقات مختلفة في الماء. فبالبصر تعرف الإنسان، ويُميِّز جميع الأشياء، وإذا كان يفتقر له، فسيكون مثل جثة، ويرتبط وصف عيون الإنسان بأنها لامعة ومائية ارتباطًا مباشرًا بفكرة النظرة المنعكسة، على غرار المرايا التي خلقها الله، خُلِقَّ الإنسان، كصورة الله(١١٠).

وتقول "هيلديجارد": "**عندما خلق الآب، "آدم" (عليه السلام)، أوكل إليه من خلال الكلمة في الروح القدس، الوصية اللطيفة للطاعة الواضحة، التي تلتصق بالكلمة في القوة الخضراء الرطبة للخصوبة؛ لأنه من خلال تلك الكلمة نفسها، تتدفق رطوبة مقدسة ممتعة للغاية مثل الندى من الآب في الروح القدس، وتنتج ثمارًا عظيمة ووفيرة، تمامًا كما يسقط الندى النقي على العشب، ويجلبها بشكل مناسب إلى الإنبات". يمكن للرجل أن يشم رائحته بأنفه ولكن ليس طعمه بفمه أو لمسه بيديه." بمعنى أنه استنشق تعاليم الشريعة بمعرفة الحكمة؛ ولم يستطع بفمه أن يأخذ قوة العناق الحميم للشريعة بالكامل؛ وبعمل يديه لم يستطع إكمال القانون في اكتمال النعمة". ثم استدار وسقط في ظلام لم يستطع النهوض منه." والسبب أنه بناءً على نصيحة الشيطان، أدار ظهره للأمر الإلهي، وسقط في فكي الموت، لأنه لم يسعَ إلى الله في الإيمان أو الأعمال. وهكذا، مثقلًا بذنوبه، لم يستطع النهوض إلى المعرفة الحقيقية، حتى مجيء من أطاع أباه دون خطيئة، لكن الظلام نما وانتشر أكثر فأكثر. زادت قوة الموت في العالم بسبب انتشار الرذائل**"(١١١).

وتوضح "هيلديجارد" كيف اخترق الأنبياء أمثال: "إبراهيم"، و"إسحاق"، و"يعقوب" (عليهم السلام) ظلام العالم بنبوءاتهم، بقولها: "**وظهرت ثلاثة نجوم كبيرة في الظلام، متحدة في سطوعها، وبعدها العديد من النجوم الأخرى، صغيرة وكبيرة، تلمع في روعة عالية. ويوجد شكل الثالوث السماوي في هذه النجوم الثلاثة الكبيرة، يمثلون على وجه الخصوص إبراهيم وإسحاق ويعقوب، الذين يحتضنون بعضهم البعض في أعمالهم المؤمنة وفي علاقتهم الأسرية، ويخترقون بنبوءاتهم ظلام العالم، ويتبعهم عديد من الأنبياء الآخرين يشعون بنور من المعجزات الرائعة. وأخيرًا ظهر نجم عظيم، يشع ضوءه نحو النار، وهو النبي يوحنا المعمدان، الذي يلمع في المعجزات من خلال أعماله المشرقة المخلصة، يسبق الكلمة الحقيقية، أي ابن الله الحقيقي، لأن يوحنا لم يستسلم للشر، بل رفضه بحزم وثبات بأعماله العدالة**".(١١٢)

---

(110) María Jesús Soto-Bruna, ***Religious Vocabulary on Creation: Eriugena, Hildegard of Bingen, Eckhart,***p.7.
(111) Hildegard of Bingen, ***Scivias***, Part II, Vision 1, In, Selected Writings, p. 66.
(112) Ibid, p.p. 67, 68.

وتقدم "هيلديجارد" رؤية رمزية لتاريخ الأنبياء، ودورهم في هداية البشرية قبل مجيء المسيح، مع مقاربة رمزية للثالوث الإلهي. إذ إن الأنبياء الثلاثة يشكلون رمزية للثالوث، فالنجوم الثلاثة كبيرة متحدة وسط الظلام، وتُجسد رمزيًّا شكل الثالوث السماوي الآب، الابن، الروح القدس، وهم: "إبراهيم"، و"إسحاق"، و"يعقوب"، مما يرمز إلى وحدة الإيمان والعهد الإلهي الذي تأسس من خلالهم. ويُشير بنبوءاتهم يخترقون ظلام العالم إلى دورهم في إرساء أسس الهداية الإلهية في زمن الجهل. وتستمر النبوة؛ إذ يتبع النجوم الثلاثة أنبياء آخرون، واصلوا مهمة الهداية الإلهية من خلال تعاليمهم ومعجزاتهم، مُنيرين بذلك مسار البشرية نحو الحق. وأخيرًا، يظهر نجم عظيم يشع ضوءه نحو النار، وهو يرمز إلى "يوحنا المعمدان" كشخصية مُمهدة لمجيء المسيح.

كما تصنف "هيلديجارد" المسيحيين حسب إيمانهم وقربهم من الله بدرجة اتصافهم باللون الذهبي؛ حيث تناقش تلك الرؤية الأشخاص الذين يشكلون الكنيسة، وترى أولئك الذين كانوا مخلصين، وكانوا من بداياتهم في الأعمال الصالحة حتى نهاياتهم في القداسة يرتدون الذهب من جبهاتهم إلى أقدامهم؛ حيث يرمز الذهب إلى تمجيد القديسين، إلا أن هناك من كان يفتقر إلى اللون الذهبي، فهؤلاء الأشخاص تم تعميدهم، ولكن لم يتم تأكيد تعميدهم، وهناك من يركزون على الله فوق كل شيء، أولئك الذين يتمتعون بعيون صافية وأقدام قوية، ويرفعون أفكارهم إلى الله، ولكنهم ما زالوا يتصرفون في العالم السماوي. يقف على النقيض منهم أولئك الذين عيونهم ضعيفة، وأقدامهم مشلولة، وهم الذين يستخدمون الكنيسة لأسباب أنانية، ولا يستطيعون اتباع المسار الصحيح الذي يقدمه القديسيون، ويتخبط آخرون في المنتصف، إما غير قادرين على التصرف كما يأمر الله على الرغم من فهمهم أو غير قادرين على فهم أوامر الله على الرغم من قدرتهم على التصرف بناءً عليه (١١٣).

خامسًا: كوزمولوجيا التصوف النسوي عند "هيلديجارد من بينجن".

تتشبع فلسفة "هيلديجارد" بالرمزية الدينية، وتقديرها لقدسية الطبيعة، وتجسد الإنسان كصورة لله متناغمًا في النظام الكوني، ومُحتضنًا بحب الأمومة الإلهي(١١٤)، وطرحت مفهومها الكوزمولوجي عن الكون في كتاب "سيفيكاس"؛ حيث تستخدم مفهوم "بطليموس" للعالم بصورة معدلة؛ حيث وصفت العالم كالـ"بيضة"، وهو له دلالات رمزية في قوى التطور التي منحها الله للخليقة، فالأرض موطن البشر تتشكل كبيضة، وهي المركز المثمر للكون. وكانت "هيلدجارد" جنبًا إلى جنب مع معاصرها "روبرت من دوتز" *Rupert of Deutz* (١٠٨٠- ١١٢٩م) تكشف عن مفهوم "التجسد المطلق" الذي تم تطويره لاحقًا من

(113) Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, p.p. 61, 62.
(114) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p. 312.

قبل لاهوت الفرانسيسكان، والمتمثل في أن الله سوف يصبح إنسانًا كإكمال وكمال للخليقة، حتى ولو لم يخطئ البشر (١١٥).

كما تهتم "هيلديجارد" بوضع منهج عقلي يمكن من خلاله التعرف على الله وإدراكه من خلال تأمل الموجودات المخلوقة؛ حيث تقول: "**تُعرَف الأشياء غير المرئية والأبدية من خلال الأشياء المرئية والزمنية**، الله الذي خلق كل الأشياء بمشيئته، خلقها حتى يُعرف اسمه ويُكرَّم من خلال خلقه، لا يُعرف فقط الأشياء المرئية والزمنية، بل أيضًا الأشياء غير المرئية والأبدية"(١١٦).

وتقول "هيلديجارد" حول دلالة الكون الذي صُنع على شكل بيضة: "**رأيت شكلاً ضخمًا، مستديرًا، وظليلاً، ومشكلًا كبيضة؛ كانت مدببة من الأعلى، عريضة في الوسط، وضيقة في الأسفل". ويمثل هذا الشكل الكبير الله القدير، الذي لا يُدرك عظمته، ولا يمكن تصور أسراره، أمل جميع المؤمنين. وكان مدببًا من الأعلى، لأن النشاط البشري كان ساذجًا وبسيطًا في البداية، وأصبح أكثر اتساعًا في عصر العهد القديم والجديد، ومدببًا نحو نهاية العالم.**" وتقول عن الإنسان في رؤيتها: "**إنك يا الله قد خلقت كل الأشياء بشكل رائع، وتوجت الإنسان بالتاج الذهبي للفهم، وألبسته رداء الشرف والجمال، وجعلته الحاكم على أعمالك السامية والكاملة التي وزعتها بعدل في مخلوقاتك، لقد منحته قيمة عالية وكرامة جديرة بالإعجاب فوق جميع المخلوقات**" (١١٧). وتشير إلى أن الحياة والكون مترابطان، ولا يمكن فصلهما، كـ"ميكروكوزموس" و"ماكروكوزموس"، ويرتبط هذا بوجهة نظرها السامية للكائن البشري، وهو موقف متميز في القرن الثاني عشر (١١٨).

وتعلق "هيلديجارد" في كتابها "**الأعمال الإلهية**" على مقدمة إنجيل القديس "يوحنا"، من "**في البدء كان الكلمة**"، وهو مبدأ أساسي بالخلق: "لأن صوتي هو صوت الرعد الذي أُحرِّك به دائرة الأرض بأكملها بالأصوات الحية لجميع المخلوقات. أنا، قديم الأيام، أخلقها، لأنه من خلال كلمتي، التي كانت دائمًا ودون بداية، ولأنه قبل بداية وفي بداية الخليقة، كانت الكلمة بلا بداية، وقبل وخلال تلك البداية للخليقة، كانت الكلمة مع الله، ولم تنفصل عنه بأي شكل من الأشكال. لأن ما قاله الله في الكلمة، أمرت به في صوتها؛ وما أمرت به، ألَّفه الله في الكلمة. وهكذا، كانت الكلمة هي فعل الله، وخلق الله كل شيء في الكلمة، وكانت الكلمة مع الله، كما توجد اللغة في العقلانية، لأن العقلانية لديها لغة بداخلها، واللغة موجودة في العقلانية، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض، لأن الله أراد في كلمته أن يخلقها في كل المخلوقات، وهو بدوره يفتح بابًا للوضع الوجودي للمخلوق، والاتحاد مع الله (١١٩). وتجدر الإشارة إلى أن

(115) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p. 35.
(116) Hildegard of Bingen, **Scivias** I, 3, In, Hildegard of Bingen, Selected Writings, p. 128.
(117) Ibid, p. 129.
(118) Mark Atherton, ***Notes***, Hildegard of Bingen, Selected Writings, p. 128.
(119) María Jesús Soto-Bruna, ***Religious Vocabulary on Creation: Eriugena, Hildegard of Bingen, Eckhart***,p.6.

هذه الفكرة اهتم بها "إيكهارت" فيما يتعلق بالوجودية الدينية عند الإنسان، وآليات تحقيق الوحدة والاتحاد مع الله.

أما بالنسبة لخلق العالم، فتقول "هيلديجارد": **كان الله، قبل خلق العالم، بلا بداية، لأنه هو كان وسيظل دائمًا نورًا ومجدًا، وكان دائمًا حياة. لذلك عندما أراد الله خلق العالم، خلقه من العدم، لأن كل مادة العالم كانت في مشيئته عندما كشفت إرادة الله عن نفسها، من أجل خلق الواقع بأكمله، كما أراد، خرجت مادة العالم من إرادته لا تزال غير مُشكَّلة، ككتلة مظلمة** (١٢٠).

أما بالنسبة لخلق الملائكة، فتقول: **وصدرت صوت كلمة الآب: "ليكن نورًا"، وعلى الفور أصبح كل شيء نورًا، وكان العالم مليئًا بالملائكة المتألقة بالضوء. لأن كلمات "ليكن نورًا" لم تكن تشير إلى أضواء فردية، بل إلى الضوء المشكل للملائكة. ولكن عندما قال: "ليكن هناك أنوار"، فإن هذا يشير إلى ضوء الهواء الذي يمكننا رؤيته** (١٢١).

وترى في خلق الروح: **أنه عندما خلق النور، الذي كان مجنحًا، ويمكنه الطيران في كل مكان، قرر في المجلس القديم نفسه أنه سيعطي كتلة جسدية للحياة الروحية، وهي نسمة الحياة، ويعطيها شكلاً مشكلاً من طين الأرض، الذي ليس لديه القدرة على الطيران أو التنفس أو رفع نفسه فوق نفسه؛ لذلك سيكون أكثر ارتباطًا بالأرض وسينظر باهتمام أكبر نحو الله. وهكذا، كان للثعبان القديم مثل هذه الكراهية لهذا الارتباط، لأن هذا المخلوق البشري الذي أصبح مثقلًا جدًا بجسده المادي كان مقدرًا له مع ذلك، من خلال عقلانيته، أن يرفع نفسه إلى الألوهية**(١٢٢).

تظهر "هيلديجارد" قوة الحياة الإلهية كشخصية لامعة وجميلة ينبعث منها ضوءٌ قويٌّ لا يمكن النظر إليه، ترتدي سترة أكثر إشراقًا من الشمس، قائلة: أنا القوة العليا والنارية التي أشعلت كل شرارة حية، بينما طوقتُ الكرة الدوامة بأجنحتي، أي بالحكمة، أمرتُها بشكل صحيح، أشتعل فوق الحقول؛ أشرق في المياه؛ أحترق في الشمس والقمر والنجوم، لي القوة الغامضة للريح غير المرئية، أنا نَفَس كل الأحياء، أنا الحياة، كاملة وغير مُقسَّمة، لا تُقطَع من أي حجر، ولا تُبرعم من أغصان، ولا تتجذر في قوة ذكورية؛ ولكن كل ما يعيش له جذوره فيَّ قوة الحياة الكاملة وغير المُقسَّمة الموصوفة هنا بوضوح شديد، والتي تتخلل كل كائن حي، يُقال إنها تلامس الواجهة بين المثال الصوفي الغربي لـ "الاتحاد الأسمى" ووجهات النظر الشرقية حول "شبكات الترابط" و"الوجود المُتبادل". تتجسد "الحياة النارية" في رؤية "هيلدغارد" بالشخصية اللامعة ذات الرأسين التي تُرمز إلى "المحبة للأب السماوي الذي يتخذ شكلًا بشريًّا، خالقًا وحاملًا الكون كله في عناق أمومي. تهتم "هيلدغارد" هنا بشكل أقل بعقيدة الثالوث من كيفية مساعدة هذه

(120) Hildegard of Bingen, **Causes and Cures *I***, In, Hildegard of Bingen, Selected Writings, p. 130.
(121) Ibid.
(122) Ibid, p. 131.

الجوانب المختلفة للألوهية في فهم مبدأ التجسد، ويتم التعبير عنه مجازيًا في العلاقة بين الأبدية (الأب)، والكلمة (الابن)، والنَفَس (الروح القدس)(١٢٣).

في المونولوج التمهيدي للرؤية، تُقدِّم "هيلديجارد" حوار بين "أنا" (هيلديجارد)، و"هو" (الله العظيم) ككلمة البِداية، التي من خلالها تأتي الخليقة كلها إلى الوجود أنا "العقلانية" *Rationalitas*، أحمل معي نَفَس الكلمة التي من خلالها وُجدت الخليقة كلها، نفختُ الحياة في كل شيء، لأنني أنا الحياة. يشير استخدام "هيلدغارد" للعقلانية للوجوس *Logos* اليونانية في قصة الخلق في إنجيل "يوحنا": "في البدء كانت الكلمة". وهو ما أثر بعمق في لاهوت "هيلديجارد" وفلسفتها، لكن فهمها لـ"العقلانية" يختلف عن "عقلانية" أجيال ما بعد عصر التنوير. لا يعني شكلًا من أشكال التفكير المُتغطرس ولا مجرد استدلال فلسفي، بدلاً من ذلك يشمل مفهومها للعقلانية الثالوثية لـ "قوة الاخضرار الإلهية،" وتتجسد في الرؤيا الافتتاحية الشخصيات الأنثوية لـ "الخضرة" *Viriditas*، والحكمة *Sapientia*، و"المحبة" *Caritas*، فتظهر الكلمة الأبدية كشعلة داخل النار الإلهية التي تتجسد باستمرار من خلال "خضرة الروح القدس" قوة الحياة الإلهية هذه "العقلانية" هي الجذر الذي تُزهر منه الكلمة. وتُصوِّر في وصيتها النبوية الكلمة كصوت الحياة، الذي يملأ العالم كله بلحن إلهي، من خلال الإجابة على الكلمة، نُصبح جزءًا من هذه السيمفونية الكونية (١٢٤).

ولم تعد "هيلديجارد" تتبنى مفهوم الكون في شكل "البيضة" بل طورته وأصبح في شكل "دائري"، كما تستخدم شكل الإنسان المتقاطع مع الأزرع الممدودة في وسط عجلة الكون، مثلما يتم تقوية السماء بالشمس والقمر، كذلك الإنسان فبمعرفة الخير والشر تجعله قويًا (١٢٥).

وتظهر عجلة دائرية في قلب الشكل نفسه المُشع الذي ينمو إلى دائرة نارية من العناصر، تحمل الكون كله، وتُحتضن بحب من قبل أذرع الشكل الإلهي. ويظهر إنسان في مركز العجلة، عاريًا، يمتد في اتجاهات العالم، متجذرًا على الأرض ومُدمجًا في النظام الكوني، هنا نجد العالم مكتوبًا على جسم الإنسان نفسه؛ حيث تم خلق جميع العناصر من أجل البشرية. وكما تكتب "هيلديجارد": "**لقد زين الله الكون ببراعة وجمال. لقد ملأه بثروات الخليقة، لخدمة البشرية**"، وإن لكل شيء مخلوق مكانه المناسب لأنه يُجسِّد عمل الله:" **تتألق النجوم بضوء القمر، ويضيء القمر بنار الشمس. كل شيء يخدم شيئًا أعلى ولا يتجاوز أي شيء قدره المستحق**"، لقد خُلق الله البشر على صورته وشبهه، وترى أن هذه الصورة هي لباس الكلمة المُتجسِّدة التي توجد في الخليقة: "تُصبح حقيقة الكلمة مُثمرة في الخضرة"، وذلك وفقًا لما جاء في كتاب "الأسباب والعلاجات"(١٢٦).

(123) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p. 317.
(124) Ibid, p.p. 317, 318.
(125) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p.p. 43, 44.
(126) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p. 318.

تتحدث "هيلديجارد" في كتابها "مزايا الحياة" عن مُصمم العالم الذي خلق البشر، "فكل شيء مخلوق لغرض دخول الله فيه، وتوفر الدورة الكونية ومسار التاريخ "الخضرة" المانحة للحياة، وتوضع العلاقة بين الكون والبشرية هي قياس الكون الأكبر والكون الأصغر، التي تنعكس في كل إنسان (الكون الأصغر)، وهكذا، فإن الحالة البشرية تحمل كل الخليقة، فالبشرية هي العمل الكامل لله، البشر فقط يعرفون ويستكشفون ويتحكمون في مُتطلبات الأرض، ويُميِّزون الأمور السماوية في مرآة الإيمان، والإنسان مُتشابك جسديًّا وأخلاقيًّا داخل الكون، كما توجد شبكة من الخطوط التي تتقاطع مع الكرات الكونية، فإنها تُصوِّر الشكل البشري كأشعة تربط كل جزء من الخليقة بالآخر (١٢٧).

وترسم "هيلديجارد" العالم كشبكة مُنظمة يجب أن تتفاعل فيها جميع الأشياء مع بعضها البعض بشكل صحيح. والعالم بأكمله موجود في "شراكة كونية"، هذا يُعطي البشرية مسؤولية الرعاية بالعالم بصورة متبادلة. بينما تُمارس الخليقة تأثيرها علينا، فإننا نؤثر في الخليقة بدورنا، ونحن مدعوون إلى التعاون والمشاركة في عمل الخلق الإلهي: جمع الله، لمجد اسمه، العالم من العناصر، قوَّاه بالرياح، ربطه ببعضه وأعطاه نورًا بالنجوم، وملأه بجميع المخلوقات الأخرى، وأحاط وحصَّن الجنس البشري، وغرس فيه أعظم قوة، حتى تُساعده الخليقة في كل شيء، وتُشارك في جميع الأعمال البشرية، حتى يتمكنوا من القيام بعملهم مع الخليقة، لأن الجنس البشري لا يستطيع أن يعيش أو حتى يوجد دون الخليقة. وعلى الرغم من أنها تُركِّز على مكانة الإنسان في الكون، إلا أنه لا ينبغي الخلط بين علم الكونيات الأنثروبولوجي الخاص بها، وبين الأنثروبولوجيا المتمركزة حول الإنسان، وبسبب حالتنا المخلوقة تُعطى لنا مسؤولية العالم المخلوق، التي أُحييت بنَفَس إلهي، وتقوَّت بقوة الاخضرار للأرض، كمرآة لقوة الحياة الإلهية، وبهذا، فإن ارتباطنا الوجودي بالخالق الإلهي يستلزم مسؤوليتنا البشرية في النظام الإلهي، أي أن نعيش في انسجام متناغم مع كل الخليقة (١٢٨).

إن كوزمولوجيا "هيلديجارد" التي تركز على الإنسان ليست مذهب مركزية الإنسان، وعلاقتنا الوجودية بالخالق الإلهي تنطوي على مسؤوليتنا الإنسانية في النظام الإلهي، أي أن نعيش في وئام نشط مع كل الخليقة. بل تركز على ثلاثة أمور: الأول، تصور صورة قوية للكون مع وجود شخصية بشرية في مركزها، مما يؤكد على ترابط الإنسانية والكون، والثاني، كوزمولوجيا تركز على الإنسان على الرغم من أنها قد تبدو مركزية أنثروبولوجية، إلا أن وجهة نظرها تؤكد دور البشر كمشارك داخل النظام الإلهي، وليس كمركزها الوحيد، والثالث، المسؤولية الإنسانية التي تسلط الضوء على الآثار الأخلاقية لهذا الفهم، مع التأكيد على أن يعيش البشر في وئام مع كل الخليقة. كما تميزت هيرمنيوطيقا "هيلديجارد" البصرية، واستخدامها اللاهوتي العقلاني والمركزية البشرية الكوزمولوجية في تفاعل بين العالم المرئي وغير المرئي، والكروي الصغير والكروي الكبير، والجسد والروح، مما يشير إلى الترابط بين الخليقة والتاريخ والخلاص،

(127) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p.p. 318, 319.
(128) Ibid, p. 319.

ويتوافق أسلوبها البصري مع تفسيريات الكتاب المقدس، ويعكس استخدامها للصور الحية جمال الخليقة، وعمق الكون، والغموض الإلهي(١٢٩).

ويمكن أن توفر رؤى "هيلديجارد" مجموعة أدوات لحل المشكلات اللاهوتية؛ مثل علاقة الإنسان بالمخلوقات، ويمكن أن يساعد في التغلب على "التفسير الاستغلالي لسفر التكوين"، الذي يُقرأ على أنه دعوة لإخضاع الخليقة والهيمنة عليها، وتقدم بدلاً من ذلك لاهوتًا للإشراف، وعلم بيئة متكامل، ومسؤولية بيئية (١٣٠).

وتجدر الإشارة إلى أن هناك أوجة تشابه بين "هيلديجارد" مع الطاوية الكونفوشيوسية؛ حيث يتوافق "الرأس" مع الدوائر الكونية، و"العينان" مع النجوم، و"الأذان" مع الهواء، و"الذراعان" بقطبي العالم، و"القلب" بالأرض، و"القدمان" بالأنهار، ويشير الشكل الصليبي عند هيلدجارد للشكل الكوني للإنسان بالنسبة للمسيحية، وله معنى إيجابي في مركز الكون (١٣١).

وبذلك، تستند فلسفة "هيلديجارد" الكوزمولوجية إلى تقديرها لقدسية الطبيعة، ودعوتها لتأمل الخليقة كوسيلة لمعرفة الله، ويرجع ذلك إلى تأثرها الفكري بالثقافة الروحية والفكرية البندكتية، وكانت على دراية جيدة بالنصوص المسيحية المبكرة، وآباء الكنيسة، والتفسيرات التوراتية، وأنه لا يمكن التحدث عن الله إلا بلغة رمزية ومجازية، ويمكن العثور على موضوعات مماثلة في اللاهوت الرمزي عند "هوج فيكتور" (١٣٢). كما أن الفكرة المتعلقة بديناميكية الله والعالم لها جذور في الفلسفة اليونانية، فكان يُنظر إلى العالم الأصغر والعالم الأكبر على أنهما صورتان طبق الأصل، وربما كان الأكثر تأثيرًا من هذه الروايات هو علم النفس السياسي الذي رسمه أفلاطون في "الجمهورية"، بهذا تصور "هيلديجارد" الإنسان كصورة مُكثَّفة للخلق بأكمله، ونسخة صغيرة من العالم (١٣٣).

سادسًا: إيكولوجيا التصوف النسوي عند "هيلدجارد من بينجن".

لقد وصفت "المؤسسة الألمانية للبيئة والديمقراطية" "هيلديجارد" بأنها راعية للبيئة لعام (٢٠١٤م)، تكريمًا لها كواحدة من أهم النساء في التاريخ، ورائدة للحركة البيئية، وأثر رؤها النبوية منذ تسعمائة عام، فلم تُلهِم "هيلديجارد" أخواتها فحسب، بل ألهمت الدينيين وغير الدينيين على حد سواء؛ لِيتبعوا مثالها في عيش حياة "خضراء"، فلقد رأت أن أزمة العالم الطبيعي ناجمة عن خلل في المسؤولية الأخلاقية. وعلى الرغم من أنها رئيسة دير بندكتيني ولاهوتية، فلم يتم تطويبها وإعلانها طبيبة للكنيسة إلا عام (٢٠١٢م)، ويعد مفهومها عن "الخضرة" الرابط الذي يربط بين نظريتها الكوزمولوجية والأنثروبولوجية والأخلاقية،

---

(129) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, p.p. 2, 4.
(130) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p. 311
(131) Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, p. 44.
(132) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, p. 2.
(133) María Jesús Soto-Bruna, ***Religious Vocabulary on Creation: Eriugena, Hildegard of Bingen, Eckhart***, p.p. 5, 6

وينبي العلاقة بين الإنسان والخلق؛ كشراكة كونية. كما أن أسلوبها البصري ليس مستوحى فحسب من تقديرها للعالم الطبيعي، ولكنه متجذر بعمق في لاهوتها، والذي يتطلب التزامًا أخلاقيًا مفاده أنه على البشر أن يعيشوا في انسجام مع البيئة، ويصبحوا مشاركين في "حديقة الله"، لتسود سيمفونية التناغم مع الخليقة بأكملها، وبهذا، لا تقدم "هيلديجارد" نظرية فحسب، بل قدمت أيضًا ممارسة نحو علم بيئة متكامل. كما ساعد "ألكسندر هومبولت" (١٧٦٩-١٨٥٩م) في تشكيل الاستخدام الحديث لمصطلح "الإيكولوجيا"، والتي تُفهم على أنها دراسة العالم الذي يحيط بنا خلال الترابط بين النباتات والحيوانات وبيئتها الطبيعية ككل مترابط ومتشابك، وأن كل شيء في تفاعل وتبادل، ويمكن أن يعبر هذا المفهوم عن فهم "هيلديجارد" للخلق باعتباره "نظامًا بيئيًا واحدًا ومترابطًا [١٣٤]. ويتوافق هذا المفهوم مع الكمال البيئي، ويُلامس جانبًا مهمًا بما يقوم به المنظرون النسويون حول علم البيئة عامة، وعلم البيئة النسوي خاصة[١٣٥].

يعد مفهوم "قوة الحياة الخضراء" أو "الخضرة" أو "النشاط الأخضر"*Viriditas* من المفاهيم الأساسية التي عوَّلت عليه "هيلديجارد" في توضيح فلسفتها الإيكولوجية من ناحية، وتوظيفه في تصوفها النسوي من ناحية أخرى.

وتعني "هيلديجارد" بالمفهوم الإيكولوجي "قوة الحياة الخضراء" القوة التي تمنح الحياة للجسم والتجديد في الطبيعة، ويدل في السياقات الدينية على قوة الروح في العالم، والقوة الأخلاقية التي تمنح الحياة والخصوبة لأفعال الإنسان[١٣٦]، كما استخدمته إلى الصحة الروحيَّة والجسديَّة، والذي يمثل انعكاسًا للكلمة الإلهية في الطبيعة، وبهذا جعلت "هيلديجارد" الإيكولوجيا مرتبطة بشكل وثيق بفلسفتها الصوفية، فالخضرة هي مصدر الحياة في الكون، وهي منحة من الله؛ لتجعل البيئة تنمو وتتكاثر، كما يجب على الإنسان المؤمن أن تنمو روحه وتخضر بالكلمة الإلهية.

وقد اشتقت "هيلديجارد" مفهوم "قوة الحياة الخضراء" من الكلمة اللاتينية "*Viridis*"، وتعني "الأخضر"، وهو ما يظهر بصورة واضحة في أعمالها الأخلاقيَّة والطبيَّة، ويشير إلى القوة التي تُحيي جميع الكائنات الحية؛ حيث ترى أن مهمة الرحلة الإنسانية تتمثل في استعادة الكمال من خلال التغلب على "الجفاف"*Ariditas*، وذلك من خلال زراعة الفضائل، وقد جسدت أخلاقيات الفضيلة في حوار بين خمسٍ وثلاثين رذيلةً وفضيلةً في كتابها "**مزايا الحياة**" [١٣٧].

وتطرح "هيلديجارد" ثلاثة مفاهيم أساسية ترتكز عليها فلسفتها الإيكولوجية في كتابها "**الأعمال الإلهية**" تتكون من: "الخضرة" *Viriditas*، و"الحب" *Caritas*، و"العقل"*Rationalitas* يسودهم التناغم، فبفعل "**الخضرة**" خُلقت كل الخليقة في الوجود، و"**الحب**"، هو العلة الأولى لخلق العالم، والعقل

([134]) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p. p. 310, 311

([135]) Jane Duran, ***Hildegard of Bingen: A Feminist Ontology***, p. 156.

([136]) Mark Atherton, ***Introduction***, p. 7.

([137]) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, p. 3.

هو فعل الخلق، ويرجع مفهوم العقل إلى كلمة "لوجوس" *Logos* اليونانية، والمقتبسة من رواية الخلق في "**إنجيل يوحنا**"(١٣٨): «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ.»، ويشمل مصطلح "العقلانية" كل قوة الخضرة الإلهية، والحب الذاتي(١٣٩).

نظرت "هيلدجارد" إلى العالم خلال مفهوم "قوة الحياة الخضراء"، والذي يجب على البشر الحفاظ عليه، فقبل الخلق كانت "الخضرة" موجودة في الله، ومنحها لـ"آدم" (عليه السلام). وتُقدِّم الشمس "الخضرة" للأرض، وأحجارها، وأعشابها، وأشجارها؛ لِتؤثر على السلوك والفكر، فالخضرة كانت سببًا للسلوك الأخلاقي، فعندما يقيم البشر علاقات جنسية خارج إطار الزواج، فإنهم يفتقدون لقوة الحياة الخضراء، وترى أنها عمل الكلمة، وهي موجودة في كل الخليقة، وأوضحت أنه في البداية كانت الخليقة كلها خضراء، وتفتحت أزهارها، ولكن تلاشت في وقت لاحق(١٤٠).

ويؤدي مفهوم "**قوة الحياة الخضراء**" دورًا حاسمًا في لاهوت "هيلديجارد"، فهو يكمن في قلب الكوزمولوجيا، واللاهوت، والبيئة، وفلسفتها عن الطبيعة البشرية والأنثروبولوجيا، وينعكس على مؤلفاتها الطبيَّة، والأخلاقيَّة، والنفسيَّة، ويتم الإشادة به في موسيقاها؛ حيث تقرر أننا مكلفون بحماية وتجديد "الخضرة"، وجلب روحها إلى جميع مجالات الحياة، فينفخ الله "قوة الحياة الخضراء" في كل كائن حي. وترى أن العالم مليء بـ"الخضرة"؛ حيث ينفخ الله "الخضرة" في سكان جنة عدن، وتجلب الشمس الحياة، ويمكننا أن نرى أن هذه القوة المُزدهرة التي يُحرّكها الروح الإلهي لا تجلب الخضرة إلى العالم الطبيعي الذي يحيط بنا فحسب، بل أيضًا إلى عالمنا الداخلي من خلال تنمية الفضائل والحياة الأخلاقية، وتُصوّر الإنسان على أنه القلب الأخضر الساطع للطبيعة، ويُقدِّم لنا العالم الطبيعي تجارب مباشرة لقوة الحياة الإلهية الساكنة فيه من خلال إنباته، وإزهاره، وازدهاره. وتقول: "**تُخرج الخضرة الزهرة، والزهرة تُخرج الثمرة، وتُسافر الغيوم عبر السموات، ويحترق القمر والنجوم بكل تألقهم وطاقتهم النارية، وتُحفِّز قوة الحياة زهورًا جديدة من الجاف**"، وبذلك، تُفيض خضرة الله، وتتخلل كل النظام المخلوق، وبهذا يتجاوز مفهوم "الخضرة" مجرد خضرة العالم الطبيعي، لتُشير إلى ألوهيتها الساكنة فيه؛ حيث تُمثِّل مبدأ حياة، ونمو، وخصوبة تتدفق من قوة الله(١٤١).

ويُصنف مفهوم "قوة الحياة الخضراء" عند "هيلديجارد" على أنه "نسوي"، ويتمثل في تجلي الروح في "خضرة الله" التي يتلقاها البشر في قدراتهم الروحية والجسدية، وهكذا ترى الخليقة على أنها تتمتع

---

(١٣٨) *إنْجِيلُ يُوحَنَّا*، الأصحَاحُ الأوَّلُ، (١).

(139) Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen***, p. 3.

(140) Allison Jaines Elledge, ***Spiritual Warfare in a Womanish Age: Hildegard of Bingen's Salvation History,*** conference paper delivered at SEMA (Southeastern Medieval Association), November, 2010, p.p. 1, 2.

(141) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p.p. 311: 314.

بالقدرة على إظهار ما هو روحي ماديًا، وهو ما يسمح للروحاني والمادي بالاختلاط، حتى لو لم تكن طبيعة الاختلاط واضحة (١٤٢).

ويظهر تقارب "هيلديجارد" للاستعارات الخضراء عندما تُقارن الروح في الجسد بالعصارة في الشجرة، تمامًا كما تُعطي العصارة الحياة للشجرة وتُمكِّن نموها، واخضرارها، وإزهارها، كذلك تفعل الروح في جسم الإنسان. فكما أن كلمة الله قد اخترقت كل شيء في الخليقة، فتخترق الروح الجسم من أجل أن تُؤثِّر فيه. والروح هي "الخضرة" بالنسبة للجسد، فينمو الجسم خلال الروح تمامًا، كما تُصبح الأرض مُثمرة من خلال الرطوبة. كما تُفهم "هيلديجارد" الصحة والمرض في ضوء هذا المفهوم في جميع أبعاد الحياة الفسيولوجيَّة، والنفسيَّة، والروحيَّة، والأخلاقيَّة، والبيئيَّة. وتعتمد الحياة الصحية على تدفق مُستمر لـ"الخضرة"، ونقص الصحة هو أيضًا نقص في الاخضرار، والذي أشبة بالجفاف والقحط. وتستعير "هيلديجارد" رموزًا مادية، فإذا تخلَّينَا عن حيوية الفضائل الخضراء، واستسلمنا لجفاف خمولنا؛ سنفتقر إلى حياة الحياة، وقوة الاخضرار للأعمال الصالحة، وستبدأ قوى روحنا في التلاشي والجفاف. ومهمة الرحلة البشرية هي تحقيق الكمال، والحفاظ عليه من خلال التغلب على الجفاف. كما تركز "هيلديجارد" في مؤلفها "**مزايا الحياة**" على آثارها الأخلاقية من خلال استكشاف جدل العلاقة بين الرذائل والفضائل؛ حيث ترى أن الرذيلة هي بمثابة العماء عن الخليقة، وتفتقر إلى "الخضرة"، والاغتراب عن العالم الطبيعي، وسجن الروح في الجسد، كما تقدم وسيلة حول كيفية استعادة "الخضرة": "**انظر إلى الشمس والقمر والنجوم، وإلى كل زينات خضرة الأرض، وفكر في مقدار الرخاء الذي يُعطيه الله للإنسان خلال هذه الأشياء ... من الذي يُعطيك هذه الأشياء الساطعة والجيدة غير الله، نريد أن ننظر إلى الأصل الإلهي للخضرة، وكيف تُفيض في العالم الطبيعي والإنساني**"(١٤٣).

وبهذا، يمكن اعتبار "هيلديجارد" نبيَّة بيئيَّة لعلم الكونيات، وتأكيدها على وجود قوة عميقة ومانحة للحياة من الخضرة الكامنة في كل الخليقة، وأن تدمير تلك الحياة بفعل الخطيئة يؤدي إلى الجفاف والموت الأخلاقي، كما أنها تربط العناصر الطبيعية بالفضائل الإنسانية، وهو ما يمثل إسقاطًا لعلم الكونيات على الحياة الروحية. فخُلقت الخليقة؛ لتكشف عن صانعها حتى يتمكن الناس من استخدام قواها والتعاون معها، ولكن متى انكسر جزء من تلك العلاقة، فسوف يتأثر الجزء الآخر، كما تُحذِّر عندما يفتقر البشر للفضائل الروحية، وهو ما سيؤثر على التوازن في العالم المادي، ووصفت عصرها بأنه أشبه بفترة جفاف، لأن معاصريها يفتقرون إلى الفضائل، كما ترى أن الإنسان هو المسئول عن اضطراب الكون؛ حيث تقول: "تصرخ العناصر بشكواها من السلوك البشري، وترفع أصواتها خوفًا وغضبًا"، وهكذا تربط

(142) Jane Duran, ***Hildegard of Bingen: A Feminist Ontology***, p. 158.
(143) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p.p. 314: 316.

السلوك البشري مباشرةً بتشويه النظام الكوني المُعد بدقة، كما رأت أن البشر في عصيانهم أهملوا الاحترام والمحبة التي يدينون بها لله (١٤٤).

ويمكن أن يتغير هذا عند "هيلديجارد" متى استعادت الخليقة العدالة، فلا يمكن علاج أزمة المناخ الحالية من خلال الاهتمام بالضرر المادي وحده، ولكن ذلك من خلال استعادة العدالة لجميع جوانب الحياة، وهكذا تنبأت بأن تجديد الخليقة سيأتي عندما يتم تطهير الفساد في الكنيسة والمجتمع، وتتجدد الحياة المقدسة، وعندما يُقرر الأمراء، جنبًا إلى جنب مع بقية الشعب، عدالة الله بحق، ويمنعون جميع الأسلحة التي أُعدت لإيذاء البشر، وقد دعى "البابا فرنسيس" (١٩٣٦– ٢٠٢٥م) إلى ضرورة "التحول البيئي"، وهو تحول روحي من أجل رعاية البشر، ونجد هذا الاهتمام موجودًا بالفعل عند "هيلدغارد" حيث تقول: "**الآن، بروحك، تأمل كم من الوقت ضللت عن الحياة الروحية، لذلك اركضْ بسرعة إلى خضرة الروح القدس، مُغيِّرًا أخلاقك. واجلبْ أزهار الفضيلة، واجمعْ حزمك بأسرع ما يُمكنك**"، يتضح هنا أن التحول البيئي عندها يبدأ بالتحول الأخلاقي. ويحتاج الناس إلى تغيير أخلاقهم، من خلال إعادة الاتصال بالروح الخضراء الذي سيساعدهم على ازدهار الفضائل، وتجديد "الخضرة" هنا يأتي كعلاج وفداء للعالم الجاف (١٤٥).

إن أحد أعظم إسهامات "هيلديجارد" البيئيَّة هو أنه علمي بقدر ما هو عملي، فتُقدِّم لنا علم بيئة متكامل، لا يتكامل فحسب عبر علم الكونيات واللاهوت والأنثروبولوجيا والأخلاق، ولكن يدمج النظرية البيئية مع الممارسة البيئية، فهي تدعونا إلى تأمل قوة الاخضرار الإلهي داخلنا، ومن حولنا، وتجدد دعوتنا الكونية. فحياتها، وعملها، ورؤاها، متجذرة في تقديرها للخليقة والبيئة الطبيعية من حولها، و"النور الحي" الذي يُحافظ على قوة الحياة الخضراء متضمن في حياتها وأعمالها، إنها تكمن في قلب رؤيتها للطبيعة الإلهية والبشرية، والأزمة البيئية والفداء وتربط بين الكوزمولوجي (الكون الأكبر) والأنثروبولوجي (الكون الأصغر). فالكون كلهُ مشبع بقوة الاخضرار الإلهية، وهي القوة الدافعة الطبيعية نحو الكمال، والقوة الحيوية التي تُحافظ على خضرة كل حياة، والتي تتكشف في حركة الكون والتاريخ. وتكمن أصالة "هيلديجارد" في إيجاد استعارات من العالم الطبيعي لتفسير التعاليم المسيحية، وتدعو إلى التشبع بقوة الاخضرار الإلهية، فروحنا الخضراء تُحيي الجسد، وتُحرِّكنا نحو الفضائل الخضراء، لأنه دون "الخضرة" المانحة للحياة، تُصبح معرفتنا مثل الرمل الجاف منفصلة عن كل ما هو حي. كما يُفهم المرض في البشرية والبيئة في ضوء مفهوم "الخضرة"، والذي يؤدي إلى الجفاف، وهو جفاف نراه في العالم الطبيعي كمناظر طبيعية جافة، وأنهار سامة، وهواء ملوث. أما في العالم الداخلي، فيُجفف نقص "خضرة" الروح، ويؤدي إلى نقص في الصحة الفسيولوجية والنفسية والأخلاقية والروحية. وبذلك، فإن لاهوت "الخضرة" في تصوير العلاقة الوثيقة بين الله والنظام المخلوق، واستعادة ذلك النظام من خلال فعل "الاخضرار الإلهي

---

(144) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p.p. 317, 320.
(145) Ibid, p.p. 320, 321.

للبشر. وأن العلاقة بين الطبيعة والبشرية علاقة متشابكة ومتبادلة بعمق، فيدعمنا العالم الطبيعي أن نعمل مع الخليقة؛ لتحقيق دعوتنا كحاملين لصورة الله، فلا تضع الإنسان في مركز الخليقة بل في قلبها، كما تكون الخليقة في قلب الخالق الإلهي، ويدعونا هذا الموقف إلى شراكة كونية بدلاً من الهيمنة على الكون(١٤٦).

وبالتالي، تطرح "هيلديجارد" رؤية تعاونية حيث يجتمع الروح، والجسد، والماء والأرض؛ ليُثمروا، كما تصور العالم كـ"حديقة الله" التي تُقدِّم لنا كل ما نحتاجه، إذا اعتنينا بها بشكل صحيح، لا يُدعى الإنسان فحسب ليكون مثل الحدائق المُزهرة التي تُخرج ثمارًا غنية في تناغم مع جميع القوى الكونية، ولكن أيضًا أن يكون بستانيًا من خلال المشاركة في خلق الله. كما تدعو البشر ليُصبحوا مثل "البساتين المُزهرة"، تنبثق منها الفضائل الخضراء. كما أننا مدعوون لأن نكون بُستانيين في حديقة الله، نقوم بـ"عملنا الأخضر"، ويتجاوز "العمل الأخضر" البستنة بالمعنى الحرفي، ولكنه يصف كل عمل إبداعي يُعزِّز الشراكة الكونية مع الخليقة. وهكذا، فإن الرؤية التي تُصوِّر دورة الحياة تدعونا إلى قراءتها بمعناها المجازي، بينما ننخرط في زراعة أعمالنا الخضراء ورعايتها وحصادها، فإننا نسترشد بفصول السنة، لمساعدتنا في فهم إيقاع الخليقة وحياتنا. بينما يدعونا الصيف إلى الإزهار واليقظة والنضج، يُقدِّم لنا الشتاء نومًا مُريحًا وترميمًا. بذلك، يمكن أن نُشارك في "السيمفونية الكونية"، وأن نكون مثل البستاني، نتأمل حديقة الله بينما تُزرع الحديقة من حولنا وداخلنا هو ما تُسميه "هيلدغارد" "الحياة السيمفونية". وهكذا، فإن إعادة تأسيس مكاننا ليس في المركز، ولكن في قلب الخليقة هو التحول البيئي، فيجب أن يكون الفيلسوف مثل البستاني، يؤدي دوره في السيمفونية الكونية من خلال استخلاص الحكمة لتغذية المعرفة الداخلية في الروح العاقلة، ويجب على المُعلِّم أن يعتني بالمعرفة كما يعتني بحديقته بحكمة وتواضع، ويساعدها على النمو والازدهار، ويُقدِّم الزهور والثمار والجمال للمجتمع. وهكذا، فإن الفيلسوف الجيد يُجسِّد ويُعلِّم الفضائل، وهي اللباس الأخضر للحكمة. يجب أن يدعم عملها، فميراثنا المشترك هو خليقة الله الخضراء. نحن كبشر مدعوون لزراعة الأرض بوفرة أعمالنا الخضراء القائمة على السلام والعدالة والتواضع(١٤٧).

ورأت "هيلديجارد" عصرها النسوي كعصر انتقلت فيه صفة "الخضرة" الذكورية بالضرورة إلى النساء. فقد قسَّم بعض المفكرين التاريخ مثل تقسيم فترة حياة الإنسان: الطفولة، والصبا، والمراهقة، والشباب، والنضج، والشيخوخة. وتبع آخرون تقسيمات "أوريجانوس" بناءً على شروق الشمس وغروبها. اعتمدت تقسيمات "هيلدجارد" للتاريخ على هدفها، ويمثل الانتقال من عصر إلى آخر إلى ضعف القديم وقوة الجديد. على سبيل المثال، أرسل الله الطوفان لتدمير البشرية لأن شر الرجال كان عظيمًا على

(146) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p.p. 321, 322.
(147) Ibid, p. 323.

الأرض؛ وبعد ذلك، جدد الأرض بعهد جديد. ففي عصر "هيلدجارد" ضعف الحماس الروحي بدرجة كبيرة، فأرسلها الله لإخراج العالم من الضعف إلى العدالة (١٤٨).

كما يتضح أن تجليَّات مفهوم "الخضرة" يتمحور حول الأنثى، وهو سمة مميزة للفكر في العصور الوسطى، وربما استخدمت "هيلديجارد" هذه الكيانات المُجسَّدة بطرق جديدة؛ حيث ترى الكون كجزء عضوي من الألوهية (١٤٩). كما دعى "البابا فرانسيس" في رسالته عام (٢٠١٥م) إلى علم بيئة متكامل، يشمل جميع أبعاد الحياة، وأشار إلى أن "هيلديجارد" تقدم روحانيةً ولاهوتًا متكاملًا للبيئة، تمامًا كما يأسف "البابا فرانسيس" على تدمير بيئتنا الطبيعية، كما سبق وأسفت "هيلديجارد" من الجفاف الذي يعكس فقدان الخضرة الأصيلة (١٥٠).

نتائج الدراسة

١. تعد "هيلديجارد " واحدة من أبرز ممثلي اللاهوت النسوي عامة، والتصوف النسوي خاصة في فلسفة العصور الوسطى الأوربية؛ لما قدمته من أفكار صوفية جديدة في عصرها، بل وفي فترتنا المعاصرة إن جاز التعبير؛ إذ تربط بين الثيولوجيا والأنثروبولوجيا والكوزمولوجيا والإيكولوجيا في فلسفتها الصوفية النسوية.

٢. كانت حياة "هيلديجارد" نموذجًا نسويًّا ثوريًّا، وذلك في قيامها باستقلال ديرها عن دير الرجال، هذا فضلًا عن تأسيسها لديرين مستقلين، وقيامها برحلاتها إلى ملوك وباباوات أوربا، ودعوتهم للإصلاح الديني داخل الكنسية وخارجها، وهو من شأنه يمثل حركة تجديد نسوي في القرن الثاني عشر.

٣. تعد "هيلديجارد" صوفية ولاهوتية متحررة، فقد قدمت نوعًا من التصوف العملي التطبيقي، فتصوفها لم يكن تصوفًا نظريًّا، بل كان تصوفًا علميًّا وجهته من أجل إصلاح العقائد التي كانت سائدة في عصرها من ناحية، ومحاولة لإصلاح الكنيسة عامة والإنسان المستقل بذاته خاصة.

٤. تنتمي "هيلديجارد" للتيار اللاهوتي السلبي، الذي يرفض البرهنة على وجود الله بالأدلة العقلية، ويرى أن العقل غير قادر على تقديمة أدله لوجوده نظرًا لقصور العقل عن إدراك ما هو غير قابل للإدارك، ويدرك فقط بالحدس الصوفي والتجربة الصوفية.

٥. قدمت "هيلديجارد" مقاربة صوفية ووجودية فيما يتعلق بمفهوم الله ووجوده، والثالوث، والروح القدس، والسيد المسيح، مقاربة تقوم على التشبيهات والاستعارات الرمزية محاولة منها لتقديم الأفكار لجمهورها بطريقة يمكن استيعابها من ناحية، ولتظل مخلصة لمنهجها السلبي ورؤيتها الصوفية من ناحية أخرى.

---

(148) Allison Jaines Elledge, ***Spiritual Warfare in a Womanish Age: Hildegard of Bingen's Salvation History,*** p.p.2, 3.

(149) Jane Duran, ***Hildegard of Bingen: A Feminist Ontology***, p. 158.

(150) Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, p.p. 310,311.

٦. لقد مرت "هيلديجارد" بتجارب روحية وصوفية كثيرة حسب ما زعمت وطرحته في كتابها "سكيفياس"، والتي صورت فيها نفسها على أن الله حدثها بشكل مباشر ووجه نصائح لها ولمن تدعوهم، وكأنها نبية دينية لا تقدم التنبؤ بالمستقبل بل لتقدم مفهوم عن التجسد والاتحاد العام، وليس الاتحاد الفردي، فهي ترى أن الله يتجسد في العالم، ويحل المسيح في الكنيسة، وهي دعوة وجودية صوفيه لمشاركة جميع المؤمنين الصالحين في الله من ناحية وفي المسيح من ناحية أخرى.

٧. لقد قدمت "هيلديجارد" فلسفتها الكوزمولوجية الكونية بشكل متناغم مع تصوفها النسوي، فالتصوف عندها لم يقتصر على كونه تجربة فردية للإنسان بشكل مستقل، بل رأت أن الكون كله يرتبط ارتباطًا صوفيا كليًّا بالله، لأنه مخلوق من قبل الله، ومسخَّر بأكمله من أجل خدمة الإنسان الذي خلقه الله لمحبته فيه.

٨. تعد "هيلديجارد" مثالًا يحتذى به فيما قدمته حول الإيكولوجيا الصوفية الدينية؛ إذ ربطت بين البيئة وبين التصوف، بل وظفت التصوف النسوي من أجل المحافظة على البيئة وكل ما تحتويه من موجودات، كما وظفت البيئة في تقديم تصوف نسوي مغاير يقوم على مقاربة بين الروح وتجلياتها وبين البيئة وما ينمو فيها، وذلك في معالجتها لمفهوم" قوة الحياة الخضراء" صوفيًّا وإيكولوجيًّا.

٩. لقد استخدمت "هيلديجارد" مفهوم "قوة الحياة الخضراء" كمفهوم إيكولوجي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بفلسفتها الصوفية؛ حيث إن قوة الحياة الخضراء هي مصدر الحياة التي يمنحها الله للمخلوقات، في مقابل "الجفاف"، ولم تقف معالجة "قوة الحياة للخضراء" للأمور المادية، بل أسقطتها على الأمور الروحية، فالله يهب "الخضرة" لتدخل الروح لتكون فاضلة ومؤمنة ومطيعة لأوامر الله، وتدخل الجسد؛ ليزدهر وينمو، وتنعدم الخضرة في الروح نتيجة للمعاصي والخطايا التي يرتكبها الإنسان فتصبح جافة.

١٠. لقد سعت "هيلديجارد" في سابقة هي الأولى من نوعها في تاريخ الفلسفة عامة والتصوف خاصة، والتصوف النسوي على وجة الخصوص في تقديم هارمونية صوفية، تضم كلًّا من: الله، والإنسان، والكون، والبيئة؛ إذ بينهم علاقة ديالكتيكية متشابكة ومتداخلة لكل واحدة منهم، فمتى كانت العلاقة متناغمة بين الله والإنسان والكون والبيئة، تحقق الحب والتعاون والتكامل فيما بينهم، ومتى كانت العلاقة قائمة على الهيمنة والسيطرة، فسيفقد الوجود الهدف الأساسي لخلقه وهو تحقيق الحب بين جميع مخلوقات الله الحية وغير الحية على حد سواء.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: قائمة المصادر.

1. Hildegard of Bingen, ***Hildegard to Bernard of Clairvaux***, Letter I, In, Selected Writings, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

2. Hildegard of Bingen, ***Letter Hildegard to Pope Eugenius III***, In, Selected Writings, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

3. Hildegard *of Bingen,* ***Letter Hildegard to Bernard of Clairvaux****, Letter I, In, Selected Writings,* Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

4. Hildegard of Bingen, ***Letter Hildegard to Pope Eugenius III***, In, Selected Writings, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

5. Hildegard of Bingen, ***Letter Hildegard to Hartwig***, Archbishop of Bremen, Letter 11, In, Selected Writings, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

6. Hildegard of Bingen, ***Letter Hildegard to Elisabeth of Schönau***, Letter 201R, In, Selected Writings, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

7. Hildegard of Bingen, ***Scivias***, Part II, Vision (I), In, Selected Writings, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

8. Hildegard of Bingen, ***Selected Writings***, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

9. Hildegard of Bingen, ***Letter Hildegard to Hartwig***, Archbishop of Bremen, Letter 11, In, “Selected Writings”, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

10. Hildegard of Bingen, ***Causes and Cures*** I, In, “Hildegard of Bingen, Selected Writings”, Translated with an Introduction and Notes by Mark Atherton, Penguin Classics, London, 2001.

11.Hildegard of Bingen: ***The Book of Divine Works***, Part 3, Vision 3, Trans. Nathaniel M. Campbell, Washington, D.C., the Catholic University of America Press, 2018.

ثانيًا: قائمة المراجع.

- **المراجع العربية.**

١. بي بورات: ***تاريخ الروحانية المسيحية***، الجزء الثاني، ترجمة: تكلس نسيم سلامة، مراجعة وتحرير: محمد حسن غنيم، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٥م.

٢. سامي حلاق اليسوعي، ***لاهوت النساء***، دراسات لاهوتية، دار المشرق، بيروت، ٢٠١٦م.

- **المراجع الأجنبية:**

3. Allison Jaines Elledge, ***Spiritual Warfare in a Womanish Age: Hildegard of Bingen's Salvation History***, conference paper delivered at SEMA, Southeastern Medieval Association, 2010.

4. Almut Furchert, ***Cosmic Partnership: Hildegard of Bingen's vision of an integral ecology***, The Journal of Social Encounters, Vol. 8, Iss. 2, 2024.

5. Almut Furchert, ***Hildegard von Bingen,*** The Encyclopedia of Philosophy of Religion, Stewart Goetz (Editors) Charles Taliaferro, John Wiley & Sons, Inc., USA, 2021.

6. Andra Alexiu, ***Magistra magistrorum: Hildegard of Bingen as a Polemicist against False Teaching***, Medieval Worlds No. 7, 2018, p.p.170-189.

7. Constant J. Mews, ***Hildegard of Bingen and the Hirsau Reform in Germany***, In, "A Companion to Hildegard of Bingen", Eds. Beverly Mayne Kienzle, Debra L. Stoudt, George Ferzoco, BRILL, Boston, 2014.

8. Elisabeth Gassmann, ***Hildegard of Bingen***, translated from the German by Katherine Best with additional translations from the Latin by Laura Dolby, (p.p. 27- 66), In, A History of Women Philosophers, Volume II, Edited by Mary Ellen Waithe, Kluwer Academic Publishers, London, 1989.

9. Franz J. Felten, ***What Do We Know About the Life of Jutta and Hildegard at Disibodenberg and Rupertsberg?***, In, "A Companion to Hildegard of Bingen", Eds. Beverly Mayne Kienzle, Debra L. Stoudt, George Ferzoco, BRILL, Boston, 2014.

10. Halil Temiztürk, ***Hildegard of Bingen: The Perception of 'Other' from the Perspective of a Medieval Mystic***, Journal for the study on Judaism, Christianity and the West in Turkey, Oksident 1/1 (2019): p.p.23-39.

11. Heidi Jo Mayer Kruse, ***Gender, Faith, and Holistism as Prophetic Vision: the Legacy of Hildegard Von Bingen's Rhetoric of 'Marriage to God',*** A Thesis of Master of Arts, the Graduate Faculty of the North Dakota State University of Agriculture and Applied Science, Fargo, North Dakota, 2013.
12. Jane Duran, ***Hildegard of Bingen: A Feminist Ontology***, European Journal for Philosophy of Religion, 6/2, summer, 2014, pp. 155-167.
13. Katie Marquette, ***St. Hildegard of Bingen***, the Big Pond German Listening Series, Deutschlandjahr, Federation of German Industries (BDI), USA.
14. María Jesús Soto - Bruna, ***Religious Vocabulary on Creation: Eriugena, Hildegard of Bingen, Eckhart,*** Licensee MDPI, Basel, Religions, 14, 1024, Switzerland, 2023.
15. Mariano Bizzarri, ***Lessons from the past, Hildegard of Bingen***, Organisms. Journal of Biological Sciences, vol. 2, no. 1, 2018.
16. Michael Embach, Hildegard of Bingen (1098–1179): A History of Reception, In, "A Companion to Hildegard of Bingen", Eds. Beverly Mayne Kienzle, Debra L. Stoudt, George Ferzoco, BRILL, Boston, 2014.
17. Minji Lee, ***Women Overcoming the Boundaries: Hildegard of Bingen's Mystical Representation of the Porous Womb***, RICE, Feminist Forum, 2017.
18. Monica H. Green, ***In Search of an «Authentic» Women's Medicine: The Strange Fates of Trota of Salerno and Hildegard of Bingen***, Dynamis, Acta Hisp. Med. Sci. Hist. lllus. (19), 1999, pp. 25-54.
19. Peter Harteloh, ***Hildegard of Bingen: Philosophical Life and Spirituality,*** Religions, 15: 506, Licensee MDPI, Basel, Switzerland, 2024.
20. Susanne Ruge, ***The Theology of Repentance: Observations on the Liber vite meritorum***, In, "A Companion to Hildegard of Bingen", Eds. Beverly Mayne Kienzle, Debra L. Stoudt, George Ferzoco, BRILL, Boston, 2014.
21. Zachary J. Young, ***Hildegard of Bingen: Mystic of the Rhine***, Master of Arts, A Thesis Presented to The Faculty of the Department of History, San José State University, 2014.